المحور الأول

ثورة فى مواجهة أعدائها

١ الخطافون ..

٢ لصالح الماضى ..

٣ هل نتعلم من التاريخ ؟ [١]

٤ هل نتعلم من التاريخ ؟ [٢]

٥ تاريخ ليس للبيع ..

٦ مصالحة مع الماضى ..

٧ اختلال العلاقة بالتاريخ ..

٨ من يدافع عن الثورة ؟

٩ بدلا من تشويه التاريخ..

١٠ « كرياكليف » وثورة ٢٣ يوليو..

١١ عـام الوثائق . .

١٢ ثورة ٢٣ يوليو والعقل العربى . .

١٣ هل انتهت ثورة يوليو ؟

١٤ فى غربال التاريخ ..

١٥ أسئلة عن المستقبل . .

١

الخطـافـون .. !

لا أقصد بالخطافين هنا مجموعات الإرهابيين الذين يخطفـون الطـائرات ويروعون الآمنين أو يقتلون الناس غيلـة، ولكنـى أقصـد مـن لا يقـل عنـهم إرهابا وخطرا ولكن خطرهم يتجـه إلى عقولنـا أساسًا وهـم الذيـن يخطفـون الفكرة خطفًا ويسارعون إلى معارضتها أو نقدها قبل أن يفهموها فهمًا جيـدا أو يدركوا مرامى صاحبها أو يسـتجلوا أبعادهـا الحقيقيـة. هـؤلاء يخطفـون كلمة من هنا أو فكرة من هناك فيتعجلون إبداء الرأى فيها وفى قائلـها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الفهم والتقصى والتحقق.

وفى الخمسينات كتب الدكتور طه حسين ينبه إلى هذه الظاهرة الخطيرة لكنه كان يقصد الخطافين فى مجال الأدب والنقـد الذيـن يقـرءون الأعمـال الأدبيـة خطفًا ويتصـدون لنقدهـا ومناقشـتها خطفًا، وكـان يـرى أن هـذه الظاهرة تهدد حياتنا العقلية والثقافية وتهدد بناء العقل المصرى ذاته، لكـن صيحة طه حسين ذهبت أدراج الرياح وازدادت الظاهرة، إلى حد أن أصبـح الخطافون الآن فى كل مكان وفى كل مجال تقريبا ولم تعد الحياة الثقافيـة والأدبية وحدها هى المهددة ولكن أصبحت حياتنـا السياسية والإجتماعيـة مهددة أيضا بنفس الآفة إذا لم نتداركها فى الوقت المناسب.

والأمثلة كثيرة على هذه الظاهرة منها مثلاً ما سمعته من أن عميـد كليـة التجارة فى جامعة عين شمس وهـو يلقى محاضراتـه علـى الطلبـة تعـرض لتحليل علمى عن صعوبة حل المشـاكل الاقتصاديـة لمصـر دون أن يصحـب ذلك تعـاون الأفـراد ورغبتـهم الصادقـة فـى العمـل الجـاد المنتج وقـال إن

الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال هذا فى سياق شرح أستاذ لطلبته عن أهداف المجتمع الاقتصادية وصعوبة تحقيقها دون تضحيات حتى فى أكثر الدول تقدمًا، ولكى يدلل العميد على أن كل إصلاح يحتاج إلى وقت ولكى يوصل الفكرة قال لهم: إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ولم يخلقها فى لحظة واحدة.

مثل هذه الفكرة واضحة بذاتها أو هكذا تصور العميد ويتصور كل من يتأنى ولو لحظة لتفهمها، لكن أحد الخطافين من الطلبة ذهب يجرى إلى صحيفة ليروى القصة بصورة مثيرة وغريبة، كتب أن العميد أثار مشاعر الطلبة وأنه قال إن الله لا يستطيع تغيير شىء فى الأمور الاقتصادية وفى هذا اعتداء على العقيدة..! وقال أيضا إن هناك من يطالبون العميد بأن يعلن توبته بصورة علنية حيث أوجد هذا الأمر شعورا بالنفور والعداء بين الطلاب.. وأن العميد تعدى على الله وقدرته أن يقول للشىء كن فيكون.

هل بعد ذلك إرهاب؟.

وهذا مجرد مثال واحد حدث فى إطار الجامعة والمفروض فيها أنها حرم الفكر الحر والمناقشة العلمية والتدريب على الفهم والتفاهم. ولكن حتى فى هذا الإطار وجد الأستاذ - ومن بين تلاميذه - من يمسك له هراوة ويحاول أن يخيفه ويرهبه ويصل به إلى تهمة الكفر ويطالبه بإعلان التوبة!.

هكذا الخطافون فى حياتنا هذه الأيام إذا اقتحمت قواتنا طائرة محكوما على جميع ركابها بالقتل بيد إرهابيين قتلة محترفين سارع الخطافون بإبداء أوجه النقد دون حتى أن يرتبوا لأنفسهم الوقائع والأحداث كما وقعت ودون أن يحاولوا استخلاص النتائج من المقدمات أو يتحملوا مشقة التحليل المنطقى للأحداث. وإذا ارتفع شعار «الصحوة» رمزا ليقظة الشعب فى مرحلة يحتاج فيها إلى حشد كل قواه - المادية والروحية - لكى يحل

مشاكله ويعوض سنوات التخلف. سارع الخطافون إلى مناقشة القضية مناقشة مبتسرة تذهب بجوهرها ولا تبقى منها إلا مجرد لفظ أو مجموعة ألفاظ يمكن أن تتعرض بسهولة بعد ذلك للتشويه، وإذا نشرت الصحف مجموعة أحداث قتل شاذة سارعوا إلى خطف الأمور خطفًا وتعميم الظاهرة إلى حد القول بأن المجتمع المصرى أصبح مجتمعًا مفككًا، ولم تعد فيه القيم الدينية والأخلاقية والأسرية فى مكانها التقليدى ولا يكلفون أنفسهم عناء التفرقة بين الظاهرة الفردية والظاهرة الاجتماعية أو يتعمقوا فى دراسة الحجم الحقيقى لظواهر الشذوذ فى المجتمع. ويحللوا الأسباب الخاصة لكل حالة التى أدت بها إلى الإنحراف، وإذا رأوا من يطالب بإرساء القواعد للتطبيق لكى تقام على أسس شاملة وراسخة اتهموا صاحب هذا الرأى بمعاداة الشريعة والكفر.

وهذا أيضا ما يحدث مع ثورة ٢٣ يوليو وغيرها من الأحداث الكبرى.. هناك من يخطف حدثا ويجرده من سياقه وظروفه لكى ينهال على الثورة ويحكم عليها حكمًا مطلقًا بالفشل..

حقيقة أننا نعيش فى عصر السرعة حيث تنهال على الإنسان الأحداث والأنباء كثيرة ومشوشة، ولا يملك كل فرد القدرة على أن يقوم بنفسه بإعادة ترتيب الأحداث وإعادة بناء الوقائع بشكل منطقى لكى يميز بين الصواب والخطأ.. هذا صحيح بالنسبة للمواطن العادى، فهل يمكن أن يكون مقبولاً من المثقفين أيضا والمفترض أن لديهم القدرة على التمييز والتحليل أو لديهم على الأقل القدرة على الفهم الصحيح لما يقال وما يجرى أمام عيونهم.

يبدو أننا نحتاج إلى تحذير الدكتور طه حسين هذه الأيام أكثر مما كان يحتاجه مثقفو الخمسينيات.. لأن الخطافين فى زماننا أكثر ولأنهم فوق

ذلك يسمحون لأنفسهم بمنهجهم المريض - أن يتناولوا خطفًا كافة شئون المجتمع وقضاياه - ابتداء من السياسة وانتهاء بالعقيدة والشريعة.

ليست هذه حملة على أحد، ولكنها تحذير من منهج مريض في الفكر والحياة، ودعوة صريحة لكل فرد إلى أن يحسن فهم ما يريد أن يناقشه قبل أن يبدأ المناقشة وألا يتعجل إصدار الأحكام. فإصدار الأحكام سهل لايحتاج إلا إلى لحظة من زمان، وقدرة على خداع النفس إلى حد أن يتصور المرء أنه فاهم لكل شيء ومدرك لكل الظروف وقادر على إصدار الأحكام في كل موضوع وفي لحظة مثل التصوير «بالفوتوماتون».. وهذه سمة من سمات الشخصية غير الناضجة على أي حال. وبداية «الصحوة» - في رأيي - أن نبعد عن آفة التسرع في الفهم والتسرع في إصدار الأحكام وهي مسألة تحتاج إلى جهد ولذلك لن يرضى عنها الكسالى، وتحتاج إلى تواضع ولذلك يرفضها أصحاب الغرور، وتحتاج إلى انفتاح عقلي وسماحة عقلية ولذلك يرفضها أصحاب العقول المنغلقة.

وليت مؤسسات التعليم والتكوين الثقافي والسياسي والتربوي تنبه إلى هذه الظاهرة وتفعل شيئًا لعلاجها قبل أن تتفاقم أكثر.

٢

لصالح الماضى

تبدو على سطح حياتنا - الفكرية والإجتماعية - ظواهر مخالفة للمنطق، وللسياق الطبيعى للعقل السوى، منها - على سبيل المثال - اختلال الوعى بالتاريخ، فالتاريخ - فى العقل السوى - ثلاث حلقات: الماضى، والحاضر، والمستقبل.. ليس بينها انفصال، ولكن لكل حلقة أو مرحلة كيان ، وخصائص، ومقومات، تجعلها متميزة عن غيرها، مع ما بينها من اتصال.. وتأثير..

وسر الاختلال عندنا أن الماضى ليس فى خانة «الماضى»، ولكنه فى خانة «الحاضر»، يزاحمه، ويسبقه أحيانا، إلى حد أن يختلط الأمر فى الوعى العام بين ما ينتهى إلى الزمن الماضى، وما هو قائم فى الحاضر ، وبالتالى تبدو إحتمالات التقدم نحو المستقبل غاية فى الصعوبة.

وللدكتور ممدوح البلتاجى ملاحظات فى منتهى الذكاء تصلح بداية لنظرية فى فهم ما نحن فيه، وتفسير أسرار التخلف والجمود فى حياتنا بشكل عام، تبدأ بملاحظات عن أشياء صغيرة فى سلوكنا اليومى، وتمتد إلى الإدارة والسياسة والحياة العامة. فنحن نعيش مع الماضى والحاضر معًا فى وقت واحد، وكلاهما فى وعينا وفى حياتنا متساويان فى الأهمية، والفاعلية، والتأثير.. ومثال ذلك أن تجد فى مكان واحد أحدث وسائل تنظيم المستندات بالميكروفيلم والكمبيوتر، وبجانبها أكداس الأضابير محفوظة بنفس النظام القديم المتوارث منذ العصور الوسطى. وفى حياتنا الوجدانية ستجد مطربى وفنانى الثلاثينات والأربعينات بأفلامهم وأغانيهم

تراهم كل يوم فى بيتك، كأنهم لم يفارقوا الحياة لأنهم جزء من صميم خريطة الإذاعات والتليفزيون، وليسوا ضمن برامج عن الذكريات أومناسبات تكريمهم فى ذكراهم، ولك أن تتخيل الأثر النفسى فى تكوين جيل جديد نشأ على نفس الأفكار والأفلام والأغانى والكتب التى نشأ عليها الجيل السابق..ما الفرق بين الجيلين؟. وإذا توحد جيلان فى الذوق والفكر والإتجاه فأين التجدد فى الحياة وأين التقدم، وأين الإبداع، وأين إختلاف الحاضر عن الماضى..؟ ولو ألقيت نظرة على أسطح، وشرفات، بل وداخل البيوت المصرية يصدمك اكتظاظها بمخلفات قديمة لم تعد صالحة للاستعمال، و«كراكيب» لم يعد الاحتفاظ بها يمثل فائدة، ومع ذلك فهى موجودة تزحم البيوت وتزاحم غيرها مما يفيد.. هل هو الحرص على الاحتفاظ بكل شىء وعدم القدرة على الاستغناء حتى عما أصبح الاحتفاظ به عبئا ابتداء من أحذية الأبناء منذ كانوا أطفالاً إلى أن أصبحوا رجالاً، وانتهاء بكتب تافهة من حيث قيمتها العلمية ولا تصمد للنقد، مليئة بالخرافات والأفكار السقيمة المعادية للعلم والعقل، والمتعارضة مع التطور الذى حققته الإنسانية فى القرن العشرين.. هل هى نزعة لتقدير كل ما هو ماض وقديم إلى حد التقديس واعتبار مراجعته، وغربلته، وإلقاء ما لا يصلح منه للحاضر، إساءة للآباء وللتراث..؟ هل هى «الروح الفرعونية» التى كانت قائمة على «التحنيط» بما فيه من رغبة فى الإبقاء على الموتى ليبقوا، ويغالبوا الزمن، ويحضروا - بأجسادهم الميتة المحنطة - فى زمن غير زمانهم؟.. هل هى نزعة طبيعية لتقديس الماضى مهما تكن قيمته.. أم هى فقدان الوعى بشكل عام وعدم تعمق الروح العلمية بشكل خاص؟.

ولماذا نختص نحن - سائر الشعوب - بهذه الخاصية، بينما ترى الأمر فى العالم المتقدم مختلفا، فعندهم فرق واضح بين «الأمس» و«اليوم» و«الغد» ولذلك تجد من تعبيراتهم الشائعة «غدا يوم آخر» وتجد عندنا

معنى مستقرا بأن الغد هو اليوم وهو الأمس، ونحن نعيش محملين بكل ما فى الماضى من أفكار لم تعد صالحة، ونظريات ثبت بطلانها وخطؤها، هناك يقومون بعملية «جرد» مستمرة للاستغناء عما يثبت عدم صحته أو عدم جدواه، ولا يبقون من «الماضى» إلا ما يصلح للحاضر.. لا يمكن الاستغناء عن الماضى كله بالطبع.. ولكن أيضا لا يمكن الاحتفاظ به كله.. هناك شعوب تجدد نفسها.. تراجع ما لديها، تستغنى وتضيف.. تحتفظ بشكسبير حيا ولكنه يظل فى خانة «الماضى»، وتدرس نيوتن ولكن لتتجاوزه وتضيف وتغير فى نظرياته، وتبقى أفكار هيجل وكانت وديكارت ولكن يتم طرحها بشكل جديد ولذلك كله يظهر عندهم مئات من المبدعين الأدباء والفنانين والفلاسفة الجدد ليقولوا كلمتهم هم، ويسمعوا العالم صوتهم هم، إنهم يفرقون بوضوح بين أحياء من «الماضى» لن يعودوا وأحياء من «الحاضر» هم الذين يعبرون عن العصر..

لماذا نحن - دون سائر الشعوب - يمثل التمسك بالماضى عندنا ظاهرة شديدة التعقيد، إلى حد المصادرة على الجديد ومعاداته، وعدم الرغبة - وأيضا عدم القدرة - فى التفكير فى المستقبل والإعداد له، ونحن نعرف أن هذه الروح لابد أن تؤدى باستمرارها إلى فقدان الرغبة فى البحث عن المجهول، واقتحام آفاق جديدة، وتصل فى النهاية إلى إحباط أعظم طاقات الأمة، وهم الشباب.

طبعا لابد من دراسة الماضى، والإهتمام بالتراث، لأن الماضى جزء منا، يسرى فينا، ولكن ليس كل الماضى، وليس الماضى وحده هو الذى يصنع حياتنا، وهذه هى المعادلة التى وجدت لها الشعوب المتقدمة حلا منذ قرون، ولم نجده نحن حتى الآن.. ولم نصل إلى صيغة تجعلنا نحتفظ من القديم بأفضل ما فيه بمعيار صلاحيته للحاضر، دون أن يكون حرصنا على القديم دافعًا لرفض التجديد، وانتقاصًا من حق الأجيال الجديدة فى أن تصوغ مشروع حياتها ومستقبلها بنفسها، بأشخاص يعبرون عن كل مرحلة

جديدة، وبأفكار تمثل بوصلة الطريق نحو المستقبل، وبطموحات لا تهاجر من الحاضر إلى الماضى، ولا تدير ظهرها للمستقبل لمجرد أنه لم يأت بعد.

هذه الحالة العقلية الاجتماعية المعقدة تقودنا أيضًا إلى دور ومسئولية مؤسسات بناء العقول والاتجاهات والقيم لكن العقبة أن هذه المؤسسات وعلى رأسها المؤسسة التعليمية، والمؤسسة الإعلامية، والمؤسسة الثقافية، بعيدة - للحق - كل البعد عن إدراك هذه المسئولية، بل إنها تكرس وتعمق تقديس كل ما هو ماض ومعاداة كل ما هو مستقبل، إلا فيما ندر، ويكفى أن ربع الشعب المصرى هو الآن مدرج فى سلك التعليم فى المدارس والجامعات. وسيكون من بينهم السياسيون، والقادة، والعلماء، والقضاة، والمفكرون، والفنانون، وسيتولون قيادة البلد فى المستقبل شئنا أو لم نشأ - لأن لكل أجل كتاب - وسواء أعددناهم لذلك أو لم نعدهم، فكيف سيكون الحال وقادة المستقبل يعيشون بعقول وأفكار وثقافة تمجد الماضى، وتعمق فى داخلهم الخوف من ارتياد المجهول، حرمناهم شجاعة البحث عما هو غير مألوف.

كيف سيكون حال بلد فى مستقبل سوف يأتى حتمًا، ولن نكون نحن فيه ولكن سيكون فيه أبناؤنا، وهم أغلى ما لدينا، دون أن نعدهم لهذا المستقبل بعلومه وثقافته ومناهج تفكيره والقيم التى تتناسب معه..؟.

هل فكرنا فى ذلك وأعددنا له، هل سندع المستقبل فى مهب الريح تفعل به المصادفة ما تشاء:

ليس هذا كلاما فى الفلسفة، ولكنه كلام فى بناء الحياة، وبحث فى أسباب التخلف والتقدم، ورفض لاستمرار التجمد.. ودعوة إلى الحياة المتجددة.. وإلقاء ما هو محنط مسلوب الفاعلية وفاقد لعناصر الحياة.. هو فى النهاية دعوة لاستعادة الوعى المفقود الذى بغيره لن نكون بشرا.. ولن تكون حياتنا حياة!..

(٣)

هل نتعلم من التاريخ ؟ [١]

اهتم المثقفون العرب اهتمامًا مبالغًا فيه بنظرية فوكوياما عن «نهاية التاريخ» وصوروها كما لو كانت نظرية جديدة لفهم الكون وحركة الحياة يمكن أن تحل محل المادية الجدلية التى إنهارت مع انهيار النظرية الماركسية وفوكوياما - الباحث الأمريكى من أصل يابانى والذى عمل لفترة قريبًا من السلطة الأمريكية - لم يفعل إلا أن إستخدام النظرية المادية الجدلية ذاتها ووفقا لمنطقها، ثم استنتج منها نتيجة عكس ما توصلت إليه.

فلقد كان الفيلسوف الألمانى هيجل هو أول من قال إن هناك جدلاً فى التاريخ وفى الفكر، بحيث يظهر لكل فكرة نقيضها، ومن الفكرة ونقيضها يتكون «مركب» لا يلبث أن يظهر له نقيض جديد، ومن خلال الجدل والصراع بينهما يظهر «مركب» جديد.. وهكذا يستمر الجدل بين كل فكرة ونقيضها، أما فى التاريخ فإن كل نظام يظهر ينشأ معه نقيضه وينتهى الصراع بينهما بإنبثاق نظام جديد، ويستمر جدل التاريخ على هذا النحو، لكن هيجل وصل إلى أن هذا الجدل ينتهى عند «الدولة البروسية» بإعتبارها قمة الاكتمال، وليس بعدها للتاريخ حركة، ولا للبشر مطلب فى الإصلاح أو الإضافة. ولم يفعل ماركس وإنجلز إلا أن أخذا منطق هيجل وطبقاه على المجتمعات، وتصوروا أن جدل التاريخ سوف ينتهى بانتصار الدولة الشيوعية وسيادتها للعالم، ثم جاء فوكوياما فقال إن الصراع بين «الاتحاد السوفيتى» ونقيضه «الولايات المتحدة» قد انتهى أخيرًا - بعد

سلسلة الصراعات التى عاشتها المجتمعات البشرية - بهزيمة الاتحاد السوفيتى وانتصار الولايات المتحدة، وبذلك يكون الجدل، أو الصراع، قد وصل إلى آخر مداه، وتكون هذه المرحلة هى نهاية التاريخ.

لم تكن هذه الفكرة تستحق كل هذه المبالغة فى تصوير فوكوياما على أنه فيلسوف العصر، واعتبار ما قاله نظرية جديدة فى تفسير التاريخ الإنسانى، وهى على أى حال لم تلق فى الولايات المتحدة ذاتها كل هذا الاهتمام الذى لقيته لدى الكتاب المصريين والعرب، لأن تصور أن للتاريخ نهاية هو ذاته تصور ساذج، فإذا كانت الولايات المتحدة قد أصبحت لها قيادة العالم اليوم، فإن انتصارها - بالتأكيد - مؤقت بمقياس التاريخ، وهناك إرهاصات ظهور قوى جديدة أمامها، لن تكون الماركسية أو الاتحاد السوفيتى، ولكنها ستكون قوى أخرى لديها من القوة الاقتصادية والسياسية والثقافية ما يجعلها تنازع أمريكا على قيادة العالم. وقد ندخل عصر تعدد القوى الكبرى، أو ندخل عصر صعود قوة أخرى غير أمريكا..

المسألة رهن بعوامل يتوقف مستقبل الولايات المتحدة - والعالم - عليها. وفهم هذه العوامل لا يهم القوى الكبرى وحدها، بل يهم الدول الصغيرة أيضا، ونحن منها، لكى تحدد مكانها ودورها على خريطة العالم الجديد، الذى يتشكل الآن ولم يستكمل صورته الأخيرة، ولكى نلحق - مع أمثالنا - بما تبقى من فرص قبل أن تتحول هذه الدول الصغرى إلى شظايا تابعة خافتة الصوت مسلوبة الإرادة، فإن أول واجباتنا أن نتعلم درس التاريخ الماثل أمام عيوننا حيًّا، ساخنًا، يقطر دما، وهو أن بعض المجتمعات تصاب فى فترة من فترات حياتها بالركود، فتعيش فى الحاضر على نفس الأفكار والأهداف والقضايا التى عاشت عليها فى الماضى، دون أن تدرك أن تغير الزمن والظروف يقضى بمراجعة كل ما لديها وإعادة التفكير فيه. وقد يستمر «الركود» إلى أن يصل إلى درجة «الجمود»، فتستسلم هذه

المجتمعات لما توارثته وتحرص على الإبقاء عليه كما هو دون تغيير، بينما كل شيء في العالم يتغير.. العلم يتغير.. ومسلمات العقل والمنطق تتغير.. وأبنية المجتمعات المتقدمة ذاتها تتغير.. والأفكار والثقافات تتغير.. بينما تبقى المجتمعات المتخلفة الراكدة في الركود والجمود، بل وترى في التغيير نوعا من الكفر.. أو الخيانة.. وفي هذه الحالة تنعدم الرؤية للمستقبل، وتختفي التصورات لما يمكن أن تصير إليه الأمور، ويفقد المجتمع ما يسمونه «الحلم القومي» أو «المشروع القومي» أوالرغبة القومية العامة في النهوض،وفي التاريخ أمثلة كثيرة لمثل هذه المجتمعات، قد يكون آخرها الدولة العثمانية ثم ها هو ذا الاتحاد السوفيتي ينهار أمام عيوننا الآن.

لأن الدولة العثمانية وصلت إلى المرحلة التي تصورت فيها أن لا حاجة بها إلى التغيير، فتجمدت وانهارت، ولأن الاتحاد السوفيتي لم يدرك في الوقت المناسب أن عليه أن يستجيب لدواعي التغيير ويجدد نفسه، وظل مثلا أعلى للمجتمعات الراكدة - فكرًا واقتصادًا وسياسة وعقيدة - ورفض التغيير والتجدد، واكتفى بأن يضع شعارات زائفة بأنه طليعة التقدمية في العالم، وعميت بصيرته عن إدراك أن التمنيات والأوهام والشعارات لا تغير الواقع..

ولأن المجتمعات نوعان: نوع مثل البحيرة الراكدة، تصبح مياهها آسنة، ونوع كالنهر المتجدد يحمل عوامل النمو والازدهار، والقانون الحاكم على الجميع هو أن المجتمع الذي لا يتزايد بقواه فإنه يتناقص، والذي لا يتقدم يتأخر، والذي لا يحقق انتصارات كل يوم يصاب بهزائم قاتلة، والذي لا يعمل للمستقبل لن يكون له مكان في المستقبل.. وهذه كلها شروح على قانون واحد للحياة هو: التغيير والتجدد أو الفناء.

والوجه الآخر لهذه الحقيقة تراه فيما يحدث فى الولايات المتحدة الآن، وهى فى المركز الأول - ما تزال - اقتصاديا، وعسكريا، وسياسيا، وعلميا، ولكنها - بيقظة الكيان الحى وذكاء الكائن المتفوق - بدأت منذ سنوات - على مستوى الفكر - فى البحث عن عوامل الضعف وعوامل القوة فيها، تخطط لاتجاه التغيير لتجديد المجتمع تجديدًا شاملاً يتفق مع العصر الجديد الذى اختفى فيه الاتحاد السوفيتى دون أن يعنى ذلك نهاية التاريخ، بل يعنى بداية حلقة جديدة من التاريخ، إذا لم تعمل لها الولايات المتحدة بكل قوة للاحتفاظ بنصرها فقد تدفع الثمن المحتوم الذى يدفعه كل مجتمع يتحول إلى بركة الجمود، ويستسلم لأوهام القوة، أو التصور بأنه فى أحسن حال، وأنه ليس هناك مزيد لمستزيد!.

ولم يكن تخلى الشعب الأمريكى عن بوش وصعود كلينتون إلى السلطة إلا لأن كلينتون كان استجابة لقانون التاريخ وضروراته. أعلن أن سياسته «تغيير أمريكا»، وحدد موقفًا جديدًا لم يدركه بوش: «أننى أرفض أن أكون جزءًا من جيل يحتفل بموت الشيوعية فى الخارج على حساب ضياع الحلم الأمريكى فى الداخل، وأرفض أن أكون جزءًا من جيل أخفق فى التنافس فى مجال الاقتصاد العالمى، وأرفض أن أقف موقف المتفرج وأدع أطفالنا يصبحون جزءا من أول جيل يكون أسوأ حالا من آبائه، ولا أريد لابني، أو لأبنائكم، أن يكونوا فى بلد فى سبيله إلى التفكك»..

والغريب أن الاتحاد السوفيتى هو الذى كان يعتنق الفلسفة المادية الجدلية، وكان الدرس الأول فيها لكل طفل فيه هو أن كل شىء يتغير، وأن التغيرات الكمية تتراكم، وعند نقطة معينة تتحول إلى تغير كيفى، فالماء يسخن بالحرارة، وتظل سخونته تزداد درجة بعد درجة وعند نقطة معينة يتحول إلى شىء آخر هو البخار.. وكذلك الإنسان والمجتمع.. لكن الاتحاد السوفيتى لم يستوعب الدرس الذى كان يعلمه لأطفاله، واستوعبته أمريكا.. ولابد أن نستوعبه نحن أيضًا..

٤

هل نتعلم من التاريخ ؟ [٢]

منذ دخل العالم العربى عصر الظلام، وتجمدت حركته عند معطيات القرون الوسطى – فقد الوعى بالتاريخ وبحركته، فلم يعد التاريخ عنده سعيًا إنسانيا للتقدم، ولكنه أصبح تجميدًا لعصور مزدهرة أصبحت فى الماضى.. واستسلامًا لما تأتى به الأحداث، التى يفرضها بالضرورة الأقوياء فى هذا العالم، وكأنها قدر مقدور لا مهرب منه ولا مفر، ومن المؤلم أن العرب – قد تحولوا مع استمرار هذا الموقف – سيكولوجيا وفكريا – إلى حالة يسميها علماء النفس «عدم القدرة على التوافق» مع التغيرات والمشكلات وما يستلزمه التطور من مجهود فى تعلم أساليب جديدة فى التفكير والسلوك ..

ولعل ذلك ما يفسر لماذا أصبح العرب أعظم أمة متفرغة لدراسة ماضيها، والحياة فيه.. والأمة الوحيدة التى يتمثل حلمها القومى فى أن يعود الزمان قرونًا إلى الوراء .

التاريخ فى الوعى العربى له دور عكس دوره الحقيقى.. فالتاريخ رصيد ثروة حضارية وفكرية وإنسانية.. لكنه ماض.. يسرى فينا، لكنه لن يعود.. يلهمنا، ولكن لا يحكمنا.. يتخذ منه الفرد والشعب العاقل دروسًا تعينه على بناء واقع ومستقبل أفضل، أما دوره عند العرب فهو سجن للعقل والروح، وقيد على تحسين نوعية الحياة، وأغلال تعوق انطلاق وتجدد الأفكار.. حتى أصبح ينطبق على العرب مثال «أهل الكهف» الذى ضربه الفيلسوف اليونانى أفلاطون، حيث صور قومًا يعيشون فى كهف مظلم فى عزلة عما يحدث خارجه، ويظنون أن هذا الكهف والظلام هو كل ما فى

الوجود، وحين تتراءى لهم من خلال شقوق الكهف خيالات تتحرك وومضات أضواء بعيدة يظنون أن هذه الأشباح الغامضة هى كل ما فى الكون من حقائق، ويتصورون أن علمهم بها وصل إلى الكمال ولا يحتاج إلى مزيد. بينما هناك، خارج الكهف أنوار مبهرة، وحقائق قائمة وحركة متصلة يتعامل معها فقط من يعيشون خارج الكهف المظلم.. فالناس نوعان: ناس غارقون فى الظلام سعداء بجهلهم وأوهامهم، هم فى الحقيقة «لعبة التاريخ» وأناس عائشون فى الحقيقة يناضلون لتحسين حياتهم، بالعلم، والعقل. وبالتفاعل مع المتغيرات. وهؤلاء هم صناع التاريخ.. لا يغير من ذلك أن الأولين راضون بالظلام والجهل الذى يعيشون فيه.

وقد نجد التفسير لهذه الحالة عند علماء النفس حين يقولون إن الإنسان – فردا أو جماعة – حين يواجه مشاكل كبرى لم يتعود عليها – مثل التعامل مع التكنولوجيا الحديثة، وعفاريت الليزر – وشياطين الهندسة الوراثية، وأوهام الانتقال من الأرض إلى الكواكب ومحطات الفضاء ذهابًا وإيابًا، فإنه فى هذه الحالة يسلك طريقًا من اثنين. وإما أن يتكيف مع هذه التطورات ويتعلم هذه العلوم الجديدة ويشارك فيها، وإما أن يعجز عن ذلك فيستجيب لهذه التحديات بطرق ملتوية، أو عقيمة، أو شاذة، فيظهر سلوك الغضب، أو العدوان، أو الانسحاب والاستسلام والانطواء على الذات، أو الاسترسال فى أحلام اليقظة. أو بتقديم الأعذار للنفس وللآخرين – عن الفشل واستدرار العطف على الحال..

ولقد كان أستاذنا عالم النفس الراحل الدكتور أحمد عزت راجح حين يحدثنا فى الخمسينات عن «مشاكل التوافق» يقول لنا : تأمل حالة طفل انتزعت منه لعبته تراه يحاول استردادها بإمساكها وجذبها، فإن لم يفلح قد يضرب المغتصب، أو يهدده بالاستيلاء على بعض ما يخصه وقد يترك الميدان وينسحب. وقد يكتفى بالصياح والصراخ، فإن أخفقت كل هذه

المحاولات فقد يستسلم، أو يجمد، أو يظل مظهرا السخط. ولو طبقنا ذلك على حالة العالم العربى فسوف نرى كيف استجاب لعملية «العدوان» المتكرر التى تعرض لها فى فترة من فترات التاريخ، ففقد القدرة على التوافق السليم، سواء مع نفسه، أو مع العالم.

لقد تعرض العالم العربى لأكثر من محنة كانت تقتضى اليقظة والحركة والنضال.. ابتداء من غزو التتار، إلى غزو الصليبيين، إلى غزو الاستعمار الحديث، إلى غزو الصهيونية، ثم إلى غزو الاستعمار الجديد، واستنهض همته فى الاتجاه الصحيح فى مواجهة التتار والصليبيين، لكنه استسلم بعد ذلك. وحين تراءت له من خلال شقوق الكهف الذى عاش فيه قرونًا خيالات من عصر النهضة الأوروبية، والثورة الصناعية الأولى «عصر البخار» والثورة الصناعية الثانية «الذرة» ثم تفجر العلوم والتكنولوجيا، ليصبح من يمتلك العلم يمتلك القوة فى عالم القرن العشرين.. اكتفى العالم العربى بأن يتلقى ما أنتجته التكنولوجيا الغربية ليستخدمها ظنا أنه أصبح بذلك يعيش عصره، بينما هو فى الحقيقة يزداد تخلفًا عنه، فليس الذى يعيش فى العصر هو من يستخدم التليفزيون والسيارة والكمبيوتر والقمر الصناعى وأجهزة الليزر، ولكنه الذى يبتكر، ويخترع، ويصنع كل هذا..

وفى الوقت الذى تحولت فيه أوروبا وأمريكا واليابان إلى بيئة مشجعة على التقدم والتعلم والابتكار، أيضا بيئة للتفتح العقلى ومراجعة كل ما لديها من أفكار وموروثات بحرية عقلية، تحول العالم العربى إلى بيئة للتزمت، مليئة بالقيود على الفكر والعقل. معادية للتجديد، رافضة للإبداع، ومتهمة كل من يجرؤ على تقديم فكرة جديدة ليست فى كتب القرون الوسطى بالمروق والعصيان. وكان طبيعيا أن يؤدى ذلك إلى تعقد الحياة النفسية للطليعة المفكرة المبتكرة، فلم تجد أمامها إلا سلوك طريق من اثنين: إما الاستسلام على طريقة «قنديل أم هاشم» لكاتبنا يحيى حقى،

وإما الهروب إلى العالم الذى يقدر قيمة الفكر والإبداع لتصبح ظاهرة «هجرة العقول» وبالا على العالم العربى، تحرمه من صفوة ما ينجبه من الكفاءات العلمية والعقلية ليسهموا فى تقدم الحضارة الغربية بدلا من أن يشاركوا فى صنع حضارة عربية جديدة. ولعل ذلك يفسر لنا سر الصراعات الكثيرة التى يموج بها العالم العربى – وهى صراعات أقلها ظاهر وأكثرها يغلى فى الخفاء، وساعد على تعميقها وقوف السلطة – أحيانا – عائقا أمام إرادة التقدم، وانتشار ثقافة اليأس وتعميق الشعور بالنقص، واصطدام الأفراد – والجماعات – حين يتحركون للتعبير عن أنفسهم بوسائل للإساءة إليهم والنيل من كرامتهم، وحرمان الشباب من إثبات ذاته بوسائل مشروعة، ثم وجود سلطات تسبب الأزمات مع شعوبها.

كل ذلك يحدث فى العالم العربى بينما تعيش شعوب العالم على مرمى البصر فى مناخ مختلف، تبحث فيه عن كيفية تحقيق مزيد من الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية لكل فرد، وعن مزيد من التقدم العلمى والفكرى والتكنولوجى، وتشجيع الشباب على العمل والعطاء والتفكير وتحمل مسئوليات القيادة.

أليس حديث أهل الكهف صادقا إذا لاحظنا كيف يظهر الخطاب العربى – الرسمى والشعبى – الرضا عما هو كائن واستثارة الحنين إلى الماضى لندير ظهورنا رافضين العلم والعقل ونكتفى بالخيالات والأوهام التى تتراءى لنا من ظلام الكهف الذى نعيش فيه، بينما نرى خطابا يتردد فى أقوى وأغنى دولة فى العالم – أمريكا – يتحدث عن «بداية جديدة لأمريكا» والبحث عن «طريق جديد لمواجهة تحديات بداية القرن المقبل» وعن تهيئة الشعب الأمريكى – لتحمل المزيد من المسئولية فى حياته الخاصة، ومجابهة مشكلات جديدة ابتداء من الإيدز وحتى البيئة، وتحقيق تحول من اقتصاد دفاعى إلى اقتصاد محلى عملاق.. وليكون لكل

فرد قيمته، ويكون كل فرد جزءًا من العائلة الأمريكية. وليكون للعامل البسيط والمدرس، والممرضة، وموظف الأرشيف من السلطة وممارسة الديمقراطية مثل ما للرئيس وللملياردير وللحاكم.. فلقد تحدثوا جميعًا بأصوات متساوية مطالبين بالتغيير ولابد من العمل على تحقيقه.. وليس المثال من أمريكا إلا لأن البعض أصبح لا يحب غيرها بينما يحدث ذلك فى العالم المتقدم كله، لأنه لا حياة بغير تجدد.

«هم» يرون التاريخ قطارًا يتحرك من الماضى إلى المستقبل، و «نحن» لا نرى التاريخ إلا على أنه الماضى ولا شىء بعد ذلك.. أى أن قطار التاريخ عندنا واقف عند محطة واحدة لا يغادرها.. والركاب أنفسهم لم يصلوا إلى درجة من الوعى تجعلهم يدركون حتمية التحرك وخطورة الجمود. ترى كم ألفا من السنين سنحتاجها لنتعلم أن المستقبل هو التاريخ الذى يجب أن نعمل بكل طاقاتنا من أجله ليكون مشرفًا لنا ولأبنائنا.. بدلاً من البكاء على أطلال الماضى أو الوقوف عند الماضى فى محاولة يائسة لاستعادته.. محاولة لا يسعى إليها العقلاء، لأن ما مضى لا يعود.. والأمس لا يمكن أن يتكرر.. والرجال والأفكار لا يمكن استعادتهم كما كانوا بعد أن رحلوا عن العالم.. فقط يمكن أن يصبحوا مصابيح تنير طريقنا ونحن نسير إلى المستقبل.. ويمكن أن يكونوا مثلاً تلهمنا وترشدنا. لابد أن نستعيد الإدراك ونفهم أن الماضى صنعته أجيال غيرنا وأن الحاضر والمستقبل يمكن أن يكونا من صنعنا ومسئوليتنا.

٥
تاريخ ليس للبيع

مع اقتراب كل عيد لذكرى قيام ثورة ٢٣ يوليو، ومع الانفتاح الديمقراطي وحرية القول وهي أهم ما يميز هذه المرحلة، تبدو في الآفاق محاولات ليست جديدة، ولكنها تتجدد وتزداد إلحاحا، لتشويه هذه الثورة ورجالها بأحكام عامة، وروايات مرسلة غير موثقة، وأحكام مبتسرة ومغرضة في معظم الأحوال.

قد نرى أن ذلك ليس شيئًا غريبًا، لأن ثورة في مثل أهمية ثورة ٢٣ يوليو لابد أن يعقبها تيار مضاد يقوده أعداؤها الذين أخرست الثورة ألسنتهم لفترة، وظنوا أن الفرصة واتتهم لتصفية حساباتهم معها، والأخذ بثأرهم منها. والنتيجة أننا نجد أنفسنا أمام ركام هائل من الكتب والمقالات والشهادات والحكايات لا نستطيع أن نعرف أيها الصادق وأيها الكاذب، وينعكس ذلك على الشباب بشعور الحيرة. ولعل ذلك سبب من أسباب القلق الذي يعانيه شبابنا، لأنه وجد نفسه فجأة أمام طوفان من الحقائق والأكاذيب لا يستطيع أن يميز بينها، ولكنها باستمرار تدفقها جعلت كثيرًا من المبادئ والمسلمات تهتز.

وتبدو أهمية المسألة أكثر كلما أدركنا إلى أي مدى تؤثر علاقتنا بالماضي بسلوكنا وتعاملنا مع الحاضر وبالجهد الذي يمكن أن نبذله - أو نضن به - من أجل المستقبل.

حقيقة أولى: أن التاريخ ليس فرارًا من الحاضر إلى الماضي، وليس حكايات تنتمي إلى وقت مضى نرددها لتزجية أوقات الفراغ، ولكن

بالعكس، فالتاريخ زاد بالغ الأهمية لإثراء الحاضر وترشيد خطاه، الماضى حى دائمًا فى الحاضر وفعال فيه. والماضى دائما جزء هام من عقلنا ومحرك لسلوكنا ومؤثر فى أفكارنا..

حقيقة ثانية: أن التاريخ ليس فن حبك الأكاذيب أو تضليل العقول، ولكنه فى الأساس معرفة بالحقيقة بعد إخضاعها لمناهج نقدية دقيقة تنأى بالتاريخ عن أن يكون ألعوبة فى يد كل من يمسك قلمًا، أو يعتلى منبرًا للقول أو الكتابة.

حقيقة ثالثة: أن الروايات الكاذبة وغير الموثقة ليست فقط تشويها للماضى، أو طمسًا للحقيقة، ولكنها أجزاء من مؤامرة للتضليل، وإفساد للماضى، بقصد إفساد الحاضر والمستقبل معًا.

وكثير مما ينشر ويقال الآن عن ثورة ٢٣ يوليو بانتصاراتها وهزائمها ورجالها ليس تاريخًا، ولكنه إفرازٌ لأحقاد شخصية أو محاولة لبيع تاريخ مصر فى حقبة هامة تحولت فيها الأحداث تحولاً جذريًا.. لن يدفع الثمن. وهناك دائمًا من هو مستعد لأن يدفع كثيرًا من أجل هذا الهدف. وهو ثمن بخس مهما بلغ، وليس أكثر ما يقال فى هذه الأيام تاريخًا. فالمؤرخ إنما ينهج نهج العلماء، يبدأ عمله بجمع الوقائع، وفى مرحلة لاحقة يقوم بفحصها واحدة واحدة باحثا عن عللها التى جعلتها على هذا النحو دون نحو آخر، ملتزما حدود الموضوعية، متحررًا من التحيز الشخصى أو العقائدى أو الطبقى، متجردًا من مشاعر الحب والكراهية، مستبعدًا الخيال من أن ينسج الأحداث على غير حقيقتها. ومن البديهيات المعروفة أن تحليل شخصية كل رواية لوقائع تاريخية بداية لابد منها لتحديد قيمة وجدوى رواياتهم ونقد الرواة، والتعرف إلى دوافعهم وتحيزاتهم مسألة غاية فى الأهمية قبل تكذيب أو تصديق رواياتهم.

ثم إن هناك فارقًا كبيرًا بين رواية أحداث ودراسة تاريخ.. الأحداث مهما تكن أهميتها أو صحتها ليست إلا مجرد نقاط متناثرة مشتتة،

لا تكتسب قيمتها الحقيقة إلا فى السياق الزمنى العام. فى التحرك من الماضى إلى المستقبل.

ولذلك فإن الذين يريدوننا أن نعيش مع القصص المثيرة وشظايا الأحداث هم فى الحقيقة يريدون أن يحجبوا عنا رؤية المسار الحقيقى للتاريخ وبعضهم يريد أن يزيف بذكاء - وعن عمد - الوعى القومى. وفوق ذلك فأكثر الكتب والأحاديث الصحفية والمقالات التى تدعى أنها تتضمن وقائع أو شهادات واقعية عن أحداث الثورة ورجالها لم تخضع حتى الآن للفحص العلمى الدقيق، الذى يستبعد ويستبقى بحسب الشروط المستقرة فى منهج الدراسة التاريخية. ولذلك فإن بعض الحكايات المثيرة التى تروى عما جرى فى سنوات الثورة ليست إلا أقوالاً مرسلة تحتمل الصدق والكذب، ولن يستطيع تقويمها إلا من يعرف رواتها ودوافعهم الخفية والظاهرة، ويعلم أحقادهم وأطماعهم وحوافزهم للقول أو الادعاء وهذا شىء بالغ الأهمية.

هناك فارق بين ما يريده بعض أصحاب هذه الكتابات والشهادات وما يريده المصريون والشباب بصفة خاصة. بعض أصحاب هذه الشهادات والحكايات يريدون تلوين رؤيتنا للأحداث والشخصيات، ويلحون على ذلك ويضغطون بكل صور الضغط والإكراه المعنوى.. وبعضهم يريد اغتيال المستقبل بذكاء لأنهم يدركون أن المستقبل لابد أن يتأثر بالماضى، وأن نهر التاريخ لا يمكن قطعه ثم بدؤه من جديد.. فيهم من يركز على «فظائع» ثورة يوليو.. حكمت على «برىء»، بالسجن، أو عذبت معتقلين! ولا أحد يريد أو يستطيع أن يدافع عن ظلم أو انحراف ولكن «الحقيقة» لا نصل إليها بأن يصدر أصحاب الدعوى الأحكام لأنفسهم بالبراءة، وهذا شىء لم يعرفه «العدل» فى أى عصر من العصور.

وليس جديدًا أن يقال إن ثورة ٢٣ يوليو كانت لها أخطاؤها وكل ثورة كانت لها أخطاؤها.. الثورة الفرنسية قتلت عشرات الآلاف من الأبرياء.

وكانت المقصلة تعمل فى الرقاب دون تمييز.. ولم يبق منها إلا أنها ثورة الحرية والإخاء والمساواة.. الثورة الروسية أخطأت كثيرًا جدًا. كل ثورة لها أخطاء ولكن المهم أن توضع أخطاء كل ثورة فى كفة، والحسنات فى كفة أخرى من الميزان، دون أن تنتقص السيئات من الحسنات، لأن السيئات - فى كل الأحوال - لا يذهبن الحسنات، وحكم الله أن العكس هو الصحيح.. كفة السيئات فيها المعتقلات وعدم تحقيق الديمقراطية السليمة، وكفة الحسنات فيها أن هذه الثورة غيرت التركيبة الاجتماعية، وغيرت المفاهيم والقيم السائدة وغيرت قيمة مصر فى المنطقة وفى العالم.. وأعطت ملايين المحرومين من أبناء الفقراء فرصة التعليم والعلاج. والعمل وانظروا إلى من يتصدرون القيادة فى الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية وقيادة العمل الحكومى والصناعى والكوادر الفنية التكنولوجية.. هل كان يمكن أن يصل هؤلاء إلى هذه المواقع لو لم تقم الثورة..؟ وتذكروا ما يقال عن تحويلات المصريين بالخارج ونبوغ العلماء والفنيين والكوادر المصرية فى كل مكان من أرجاء العالم.. أليس هؤلاء ثمار سياسة التعليم المجانى وفتح أبواب الجامعات لأبناء الفقراء وزيادة فرص التفوق والتوسع فى البعثات والدراسات العليا.. وهى سياسة لم تبدأ إلا مع ثورة ٢٣ يوليو..!

ليس المجال الآن حصر إنجازات وتجاوزات ثورة ٢٣ يوليو ولكن المهم أن ننبه إلى خطورة بعض ما يجرى على عقول الشباب وتوجيهه. ولا نطالب بإيقاف نشر أو منع أحد من القول، فحرية القول، وحتى حرية الكذب مكفولة، وهذه هى الديمقراطية، وعلينا أن نتحمل الديمقراطية بحلوها ومرها.. لا نجادل فى حق كل من يريد أن يقدم شهادته صدقًا كانت أو كذبًا. ولكننا نطالب بأن ترتفع أصوات تنبه الشباب إلى حقيقة أن هؤلاء لا يكتبون التاريخ، ولكنهم يقولون ما يريدون.. بعضهم يقول حقائق، وبعضهم ينفث سما، والتاريخ لن يقبل من أحد شهادة إلا فى حدود دوره وقيمته.. وهل يتصور مثلا قول شهادات الخدم ومن كانوا فى حكمهم عن

وقائع تدخل فى نطاق السياسة العليا للدولة، أو قبول شهادة موتور أو واحد ممن ينتمون إلى.. أعداء الثورة - بحكم الوضع السياسى الاجتماعى..؟

لقد أتيحت الفرصة كاملة لأصحاب الهوى وأصحاب الغرض، ولكل من فى نفسه مرض، ولكل من يريد أن يصفى حساباته مع الثورة، ولكل من أراد أن يخلع عليها ما فى نفسه من حقد، ولا اعتراض على شىء من ذلك. فنحن فى عصر حريات، ونحن فى مرحلة ما قبل كتابة التاريخ الصحيح للثورة.. وبعد أن تنتهى هذه المرحلة - ولابد أن تنتهى بطبيعة الحال - تأتى مرحلة يتم فيها فحص وتمحيص هذا الكوم الكبير وفقاً لمنهج علمى وموضوعى وبروح الحياد والإنصاف، حيث يذهب الزبد جفاء، ويبقى ما ينفع. وإذا كان هناك من هو مستعد لأن يدفع الكثير ثمنا لتشويه تاريخ الثورة وتزييف الوعى القومى، فإن هناك حقيقة تصدق فى كل زمان هى: أن تاريخ الأمم ليس للبيع.. وأن كل شىء وكل إنسان - طال الوقت أو قصر - سوف يصبح فى حجمه الحقيقى، ولن يكون الأقزام عمالقة أبدا مهما حاولوا إسدال ستار على العمالقة الحقيقيين.

٦

مصالحة مع الماضى..!

فى مسرحية شكسبير الشهيرة «هاملت» تصوير دقيق لحالة التمزق النفسى والتصدع المدمر التى تصيب شابا اكتشف فجأة أن أمه – وهى طبيعة الأمومة والبنوة مصدر الأمان والفخر فى نفسه كما هى فى نفس كل شاب – لم تكن إلا خائنة.. وتدور المسرحية حول الحيرة والتردد النفسى والقلق ثم انفصام الشخصية، ثم فقدان الثقة فى كل شىء وكل إنسان بعد ذلك.. هذا النموذج الإنسانى المجسم يصلح مدخلا يفيدنا فى فهم الحالة التى يعانى منها كثير من الشباب المصرى وانتهت بجزء منه إلى سلوك غير سوى تراوح بين السلبية وفقدان الانتماء من جانب، أو العدوان، تعبيرا عن الرغبة فى الانتقام لنفسه من الخديعة التى وقع فيها، من جانب آخر.

فخلال العشرين عاما الماضية، دأب عدد من السياسيين والكتاب وسماسرة التاريخ على تشكيك الشباب المصرى فى كل عمل قامت به ثورة ٢٣ يوليو، وفى كل شخصية من قادتها، وخدموا بذلك جهات كثيرة – داخلية وخارجية – من صالحها قطع الصلة بين الحاضر والماضى.. لكى يضيع المستقبل «!» ويبدو أنهم حصلوا على ما جعلهم يجتهدون فى مهمتهم حتى شوهوا تاريخ الثورة كله، ولطخوا سيرة أبنائها جميعًا، وجعلوا الشباب يعتقد أنه كان ضحية خديعة كبرى حين ظن أنها كانت ثورة شعبية، أو أن قادتها كانوا أبطالاً للوطنية، أو أن أعماله كانت خالصة لوجه الوطن، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن ينتقل الشباب من الشعور بالخديعة إلى الإحساس بأن كل ما أتى ويأتى بعد ذلك، لن يكون

إلا خداعا.. وتنتقل الشباب بين الرفض للماضى والحاضر إلى الرغبة فى قطع الصلة بكل ما يتعلق به والسعى إلى إقامة بنيان جديد قائم على الإستقامة والطهارة يتفق مع تطلعات الشباب إلى المثل العليا، وطموحه إلى تحقيق النقاء والطهارة وسائر المثاليات الأخرى.. ومن هنا صار من السهل خداعه وانقياده لكل من يلوح له بمبادىء النقاء والطهارة، دون أن يرى ما قد يكون وراءها من مؤامرات لتخريب العقول ثم لتخريب الوطن.!

ووفقًا للإحصائيات الرسمية، فإن نسبة الشباب الذين يبلغون من العمر ثلاثين عامًا فأقل ٧٤٪ مما يعنى أن ثلاثة أرباع الشعب المصرى، لم يعايش أحداث الثورة، ولم يدرك بوعى حقائقها الكبرى، وحين يمارس هؤلاء الشباب حقهم فى معرفة تاريخ بلادهم فى هذه الفترة، فانهم يقعون ضحية لمن ارتدوا مسوح المؤرخين، وادعوا الحياد والموضوعية، بينما تطفح أقوالهم بما فى نفوسهم من حقد وتحامل وكراهية شخصية ورغبة فى الانتقام، وهذا يتعارض مع شروط صلاحية المؤرخ.. ابتداء من الدقة فى تحرى الحقيقة ثم الاعتداء على وثائق صحيحة ووقائع ثابتة، إلى تفسير الأحداث فى ضوء خصوصية الظروف التى أحاطت بها فى وقتها وفى إطارها وملابساتها التى تختلف بكل تأكيد عن ملابسات الحاضر الآن. فليس هناك مؤرخ حقيقى يحكم على فرد أو واقعة إلا فى ضوء زمانها ومكانها، وليس وفقا لظروف عصره هو ومقاييسه فهى بالقطع مختلفة، والمؤرخ المنصف يعرف أن أحداث التاريخ كان نتاجًا لعوامل شخصية وموضوعية فى زمان معين، فإذا اختلفت هذه العوامل، أو اختلف الزمان، فلابد أن تختلف الأحداث.

وكل ثورة من ثورات التاريخ الكبرى تعرضت لحملات شرسة من التشويه من جانب اعدائها. الداخليين والخارجيين. حين سنحت لهم الفرصة، وكان طبيعيًا أن يحدث هذا أيضًا لثورة ٢٣ يوليو، ولكن مع فارق واحد، هو أن أعداء ثورة يوليو خلت لهم الساحة تقريبًا، وظنوا أن الريح

المواتية التى دفعت سفينة أكاذيبهم إلى بعيد جدا، سوف تظل مواتية، وأنه فى زمن أصبح فيه كل شىء للبيع «حتى الضمائر والرجال» فإن سماسرة التاريخ وتجار «الشنطة» الذين يجدون سوقا رائجة للوقائع الكاذبة والتفسيرات المغرضة، سوف يظلون فى حالة الانتعاش هذه إلى آخر المدى مستفيدين من صمت واختفاء الذين يعرفون الحقائق، ووجود أغلبية من الجماهير لم تشهد ولم تعرف، وكان من أثر حملة التدمير للماضى بالكامل التى قاموا بها، أن أوصلوا الشباب إلى حالة لا نستطيع فهمها بدقة، إلا إذا عدنا إلى شخصية، «هاملت» الشاب المعزق الذى تقطعت صلاته بجذوره فوجد نفسه ضائعًا فى مهب الريح.

ونتيجة للحملات الظالمة وغير الموضوعية التى انطلقت تهدم كل ما انجزته ثورة يوليو، وتقلل من أهمية إيجابياتها، وصل الشباب إلى ما يمكن أن نسميه «خصام مع الماضى» ورغبة فى الانفصال عنه، ولأن هذا الماضى بالذات يمثل جانبًا عزيزًا من حياة الوطن، فهو ملحمة النضال من أجل استقلال الإرادة وتأكيد الكرامة والسعى إلى العدالة، فإن معاداته لابد وأن تترك آثارها النفسية من القلق، والتوتر، والعدوان، وامتداد الشك إلى كل الماضى، ثم انسحابه على كل الحاضر، ثم فقدان الاحترام والاعتبار لجيل الآباء لأنهم يمثلون الخديعة [وفقا لجهود واجتهادات أعداء الثورة السائدة] وهم رموزها الحية والباقية.

من هنا تتأكد أهمية «المصالحة مع الماضى» وإعادة الثقة فى ثورة يوليو باعتبارها ثورة قامت تعبيرًا عن تطلعات الشعب فى إقامة نظام سياسى جديد يحقق الاستقلال والكرامة الوطنية من ناحية، والعدالة الاجتماعية من ناحية أخرى، فأخطأت وأصابت، وحققت إيجابيات وسلبيات، وواجهت النجاح والفشل، وظهر فيها الزعماء الحقيقيون والزائفون، وظلت

تواجه أعتى التحديات على الصعيدين الداخلى والخارجى، ومازالت معاركها قائمة لبناء الوطن تحتاج إلى جهد الرجال.

ومن أجل إعادة التوازن والاتزان للشخصية المصرية، وبالذات بالنسبة للشباب فإننا نحتاج إلى «رد اعتبار» للثورة وقادتها.. لم تكن - ولم يكونوا - فى حاجة إليه بقدر ما أن الشباب المصرى فى حاجة إليه، لكى تتحقق المصالحة مع التاريخ ويلتئم الشرخ الذى أصاب نفوسهم أبلغ إصابة، وهدد قدرتهم على التوافق مع الحاضر ومسايرته، وأثر فى أهليتهم للتطلع والتعامل مع المستقبل، نتيجة العداء مع الماضى.. واتساع الفجوة وأزمة الثقة بين أبناء هذا الجيل وجيل آبائهم..

ومن هنا أيضا تأتى أهمية احتفال التليفزيون وأجهزة الإعلام المختلفة بهذه المناسبة دون أن يمتلئ الحديث عن الثورة بالغمز واللمز، كما حدث فى السنوات السابقة، ودون حذف مشاهد أو صور أو وقائع، مما يمثل عدوانا على التاريخ، وتأتى كذلك جدوى الندوات التى عقدت، وأهمية الجهد العلمى الذى قام به مجموعة من أكبر أساتذة التاريخ فى مصر، الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى المجال العلمى وبتقدير الرأى العام فى دراساتهم القيمة التى ضمها كتاب أصدره مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، بعنوان «أربعون عامًا على ثورة يوليو: دراسة تاريخية» يستحق قراءة دقيقة ووقفة متأملة، بالتحليل والدراسة.

(٧)

اختلال العلاقة بالتاريخ

في كل عام، وكلما جاء يوم ٢٣ يوليو، يتجدد الاهتمام بقضية التاريخ القومي بروح جديدة من الموضوعية، ليس لهدف انصاف شخصية تاريخية غيرت مسار الحياة في وطنها وفيما حولها، مثل شخصية جمال عبد الناصر بماله وما عليه. ولكن الهدف الحقيقي أهم وأكبر، ويتعلق بالمستقبل أكثر مما يتعلق بالماضي.. ذلك أن هناك أجيالاً لم تر عبد الناصر ولم تعش حرارة وضغوط الأحداث معه. وأكثر من نصف الشعب المصري من الشباب أقل من ٢١ عامًا، وأكثر من ٧٠٪ عمرهم أقل من ٤٠ عامًا. ومن حق هؤلاء الذين لم يروا بعيونهم ولم يعايشوا بأنفسهم، أن يعرفوا، بعيدًا عن المزايدات والمناقصات، حقائق ما جرى في مصر ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وما بعدها.

ولا يمكن التهوين من أهمية هذا الموضوع أو إرجاؤه أكثر من ذلك، لأنه يتعلق بالكيان القومي، والهوية، وبالتئام أو انفصام الشخصية المصرية.. وبالمصالحة مع التاريخ أو الخصام معه.. فوق أنه يتعلق بالنظر إلى سنوات الماضي بغضب وازدراء أو بالفخر وبشعور بأن الخطوات التي تحققت يمكن استكمالها.. وأن الأخطاء التي ارتكبت يمكن تصويبها.. ويكفي أن نرى المواطن في أمريكا أو أوروبا يعرف حقائق تاريخ بلاده واضحة، ولا بأس من أن تختلف الرؤى والحكام في تقييم الأحداث والشخصيات مادامت الأحداث ذاتها مذكورة دون تزوير أو تزييف أو إخفاء، المشكلة أن الشباب المصري – والعربي – لديه شعور عميق بأنه تعرض، ومازال يتعرض،

لعملية خداع وتلاعب بأفكاره ومشاعره، وأنه واقع تحت تأثير من يصور كل عمل تم فى ظل الثورة على أنه جريمة مدبرة، وكل شخصية شاركت فى خدمة بلدها على أنها شريك فى عصابة، وأن البلد كله كان واقعا لفترة طويلة تحت تأثير قيادات كلها منحرفة، بل أن بعضهم وجد فى نفسه الجرأة ليقول إن قادة الثورة كانوا عملاء لجهات أجنبية وتجرأ بعضهم أكثر فوضع كتبًا مليئة بالافتراءات تهجموا فيها على الثورة كلها وأجهدوا أنفسهم فى ادعاء من خيالهم أن هذه الثورة لم تكن إلا من صنع أجهزة مخابرات دول كبرى.! وعلى الجانب الآخر هناك من يصور هذه الفترة على أنها الفترة الوحيدة التى شهدت قيادات وطنية مخلصة، وكل ما فعلته كان صوابا، ولا يأتيه الخطأ أو الباطل على أى وجه وإنما كان معبرًا عن قمة الإخلاص والوطنية..

والحقيقة أن كلتا النظرتين فيهما التطرف. وحتى الآن لم نبدأ فى معالجة هادئة تظهر السلبيات والإيجابيات الانتصارات والهزائم، الأبطال والانتهازيين.. وطبيعى فى كل مرحلة وكل مجتمع أن يكون فيه الشرفاء واللصوص، وأن يظهر فيه الأطهار والشياطين.. واقرءوا القرآن الكريم لتعلموا أن المنافقين كانوا حتى فى مجتمع المدينة والرسول ﷺ هو الذى يقود هذا المجتمع وحوله كوكبة من أطهر البشر، والوحى ينزل!

ومن المهم لمن يهاجم الإيجابيات بضراوة أو يدافع عن السلبيات باستبسال أن يدرك أن تاريخ أى أمة هو رصيدها، وأن ذاكرة كل أمة هى مستودع تجاربها التى تعينها على تحديد الطريق الصحيح فى حاضرها ومستقبلها، وأن التاريخ حلقات متصلة، وكل الأبناء من صلب الآباء، فلا يستطيعون التنكر أو التبرؤ منهم، وهنا تظهر خطورة المحاولات التى تجرى لتشويه الآباء فى عيون أبنائهم، وخطورة افساد الذاكرة العربية، وربما يكون هناك من يسرف فى تشويه تاريخ ثورة ٢٣ يوليو بدوافع حقد

قديم ولتصفية حسابات وثأر شخصي أو عائلي، ولكن يجب ألا يؤدى ذلك إلى تزييف الوعى القومى لأمة بأسرها، ويجب أن يتوقف ذلك بصورة أوبأخرى، لأنه ليس من مصلحتنا أن ينظر الشباب المصرى بسخط وكراهية لفترة خصبة من حياة وطنهم، ولأن اضطراب الشخصية المصرية سيكون عظيما حين يرى الشباب الانتصارات التى حققها الشعب المصرى على أنها هزائم، والهزائم على أنها انتصارات.. فذلك العبث بالوعى العام له — دون شك — أسوأ الأثر فى سلوك واتجاهات الأجيال القادمة ومواقفها السياسية، ليس تجاه الماضى وحده، بل تجاه الحاضر أيضا. وظواهر الإرهاب الحاضرة فى جانب منها ترجع إلى التمرد على الماضى وعدم الثقة فيه وانسحاب ذلك نفسيا على الحاضر.

إن بطلاً قوميا مثل كروميل فى بريطانيا قاد ثورة فاشلة على الملكية، عادت بعدها الملكية، ومع ذلك فإن كروميل، دخل التاريخ والوجدان البريطانى باعتباره بطلاً قوميًا أراد أن يتحدى الديكتاتورية ويرسى الديمقراطية، وله على هذه المحاولة تقدير يستحقه، لأنه كان عاملاً فى تحريك المجتمع البريطانى وتغيير الحياة السياسية وإرساء أفكار وقيم ومبادىء جديدة.. أما عندنا فإن كثيرين يصورون كل ما فعلته الثورة على أنه جرائم دون استثناء، وكل قادتها مجرمون دون تفرقة، بل وبعضهم تعادى أكثر فاعتبر قيام الثورة فى ذاته جريمة.. هنا نقول إن الأمر لم يعد تاريخًا، ولكنه تزييف وتشويه وعبث فيما لا يجوز العبث به، وتخريب للعقول عواقبه وخيمة.

من هنا تظهر أهمية تجديد القضية القديمة، وهى ضرورة إعادة كتابة تاريخ الثورة. ولا أعرف كيف يتحدث الجميع عن تنمية الولاء والانتماء فى الشباب ولا ينتبهون إلى أن التاريخ هو العامل الذى لا يتكون الولاء أو الانتماء بدونه.. ولكن ظهر ما يمكن أن نسميه «التجارة فى

ثورة٢٣يوليو».. هناك من يبيعها لمن يدفع، وهو يعرف — أو لا يعرف — من سيشترى منه.. وكما أن هناك من هم على استعداد للدفع للمزايدين، هناك أيضًا من يدفعون للمناقصين، وليس هناك من يدفع للمنصفين.. ولذلك نرى المنصفين قلة، لا يطلبون لأنفسهم إلا إرضاء ضميرهم الوطنى، وابراء الذمة أمام الله والوطن، ويعلمون أن المنافقين والمتاجرين بأوطانهم لهم أسوأ الحساب عند الله والناس بعد عمر طويل أو قصير.

لا أريد أن أكرر القول بان من لا ماضى له، لا مستقبل له، أو التذكير بأن من يخجل من ماضيه لن يجد فى نفسه الثقة لبناء مستقبله، كما لا أريد الافاضة فى الحديث عن مشكلة تعدد المناهج، والمصالح، والانتماءات، لدى المؤرخين، وعدم تبلور مدرسة تاريخية مصرية محايدة، كما لا أريد أن أكرر المطالبة بتكوين لجنة أو هيئة لكتابة تاريخ الثورة، ولا حتى المطالبة باتاحة الاطلاع على الوثائق ومحاضر الاجتماعات الخاصة بالفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٧٠ على الأقل.. فهذه كلها أمور أصبحت المطالبة بها موسمية، ويبدو أنها لن تتحقق لأسباب ليست معلومة، ولكنى سأطالب بالحد الأدنى، وهو أن يتفق الباحثون والكاتبون عن ثورة ٢٣ يوليو على الالتزام بميثاق شرف، أو بميثاق أخلاقى، يمثل الحد الأدنى من اخلاقيات النزاهة، بألا يسرفوا فى الشتائم، وألا يسرفوا فى المدائح، وأن يرعوا الله والوطن والضمير فلا يصوروا كل شىء باللون الأسود أو باللون الوردى، وأن يحاولوا التخلص من آثار خسائرهم أو مكاسبهم الشخصية فى هذه الفترة، وأن يتعففوا عن التجارة فى تاريخ وطنهم.

وإذا كان من حق كل الشعوب أن تفخر بإنجازاتها فلماذا نطمس نحن إنجازات فترة خصبة تثير فى المصريين مشاعر الاعتزاز والكرامة الوطنية، ولماذا نشوه جهودًا أقامت مصانع وسدودا وأراض جديدة. ولماذا لا نتحدث

دون خجل عن خطيئة غياب الديمقراطية، وعن الأخطاء السياسية والعسكرية التى أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ وكيف نضمن ألا تتكرر فى مسار التاريخ المصرى كله.. ونتحدث بكل وضوح عن غيرها من الأخطاء وهى ليست قليلة ولا هينة.. دون انكار الانتصارات، وهى أيضا ليست قليلة أو هينة.

وربما يكون فى حدود الممكن أن ينشأ مركز علمى لدراسات ثورة ٢٣ يوليو لجمع ما يمكن جمعه من معلومات وشهادات، ومخطوطات، ويحصل على نسخ مما صدر فى كل دول العالم من كتب وأبحاث عن هذه الثورة. ولا يحتاج ذلك إلى قرار سيادى، ويكفى أن تفعل ذلك إحدى الجامعات المصرية أو العربية، أما الجامعات الأمريكية والأوربية ففيها أقسام كثيرة لدراسة كل ما فى حياة ومجتمع وتاريخ العرب فى ماضيهم وحاضرهم.. ولكن أهدافهم من الإستفادة من هذه الأبحاث مختلفة عن أهدافنا.

لا نطالب بأكثر من الإنصاف والاعتراف بالحقيقة.. للثورة أو عليها.. المهم ألا نترك الساحة للتجار ليبيعوا تاريخنا القومى وكفاح شعبنا الذى دفع فيه سنوات فى المعارك السياسية والاقتصادية والحرمان من أجل البناء.. واستشهد خلالها آلاف من خيرة الأبناء وهم يهتفون بحياة مصر.. ثم يأتى اليوم من يزيف التاريخ ويقبض الثمن..!

(٨)

من يدافع عن الثورة؟

كانت الثورة منذ قيامها تحذر من أعدائها، وكانت على وعى بأن هؤلاء الأعداء لن يترددوا لحظة فى الانقضاض عليها وتشويه صورتها وهدم إنجازاتها إذا واتتهم فرصة واتخذت الثورة خطوات لتحمى نفسها من أعدائها.. حاكمتهم سياسيا أمام محاكم خاصة، وجردتهم من أسلحتهم الأساسية (استغلال رأس المال وسيطرة الإقطاع) وحرمتهم من المشاركة فى توجيه الحياة السياسية، ولكنها أبقت لهم على حياتهم ومصدر رزقهم الأساسى، ورفضت تماما فكرة إعدام أعدائها بالجملة كما فعلت الثورات من قبلها.

فالثورة الفرنسية مثلا نصبت المقاصل فى الساحات والميادين وقتلت أعداءها، بل وقتلت معهم كل من حامت حوله شبهة ولو من بعيد فى أن يكون من أعدائها أو يتعاون مع أعدائها.. والثورة الروسية لم تفتح السجون لأعدائها ولكنها أعطت الثوريين الحق فى أن يخوضوا الصراع المسلح لتصفية أعداء الثورة جسديا فى معارك دموية، ولا تزال كتب التاريخ مليئة بالفظائع التى ارتكبت خلالها، والثورة الصينية قام فيها الثوريون بأنفسهم - بغير تفويض من أحد ولا أحكام محاكم ولو صورية - بفتح بطون أبناء الطبقات التى تسببت فى الاستغلال والظلم الإجتماعى لكى يبحثوا فيها عن «التفاح» الذى كان يأكله أبناء هذه الطبقة.. لكن الثورة المصرية رفعت منذ أول دقيقة شعار أنها ثورة بيضاء وكانت بذلك شيئًا جديدًا فى تاريخ الثورات..

وبقدر ما تفخر ثورة ٢٣ يوليو بأنها عاملت أعداءها بأقصى قدر يمكن لثورة أن تحققه من إنسانية، فقد أعطى ذلك لأعدائها قدرة على أن يستمر

وجودهم فى المجتمع المصرى بأكثر مما يجب وبأعمق مما يجب، وكان هذا هو السبب فى أن الثورة كانت كلما انطلقت فى طريق سرعان ما تشعر أن هناك «فرامل» تعوق حركتها وتقيد انطلاقها. وكان للثورة أعداء خارجيون، وهذا طبيعى، كما كان لها أعداء داخليون وهذا طبيعى أيضا، لم يفقدوا أظافرهم ولم يسلموا أسلحتهم، ولا فقدوا حقدهم الذى يدعوهم بين حين وآخر إلى محاولة هدم الثورة بالقول عن طريق الدعايات أوالإشاعات أو النكت أو جماعات الهمس، أو بالفعل (عن طريق المؤامرات ومحاولات الانقضاض التى تكشفت تفصيلاتها فى محاكمات كثيرة جرت خلال السنوات الأربعين الماضية). طبيعى أن يكون لكل ثورة أعداء.. وطبيعى أيضا أن يحاول أعداء الثورة أن يغتالوها ويشوهوا انتصاراتها ويقتلوا قادتها وهم أحياء.. ثم يحاولون تشويه صورة من رحل منهم.. وقد يكون مفهوما وليس طبيعيا أن يتحالف أعداء الثورة فى الخارج مع أعدائها فى الداخل، ولكن الشىء الذى يبدو غير طبيعى وغير مفهوم هو كيف يتصور هؤلاء أن عجلة الزمن يمكن أن تدور إلى الوراء، وأن تاريخ ٤١ سنة من عمر الشعب المصرى يمكن أن يمحى، وأن الحياة يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه قبل ٢٣ يوليو، وهل يتصورون أن الساحة يمكن أن تخلو لهم يوما ويسكت الذين قامت الثورة من أجلهم عن الدفاع عنها؟ هذا هو السؤال!..

وليست القضية أن الثورة لها أخطاء أم لا، وهل تحولت بفضلها حياة المجتمع المصرى إلى الأفضل أم لا، فمثل هذه الأسئلة يمكن أن يطرحها الدارسون لتقييم أعمال الثورة بموضوعية وإنصاف كما يمكن أن يطرحها أعداء الثورة كنوع من الجدل الذى يراد به طمس الحقائق وتشويهها، فكل ثورة فى التاريخ لها سلبيات وإيجابيات ولا تقاس قيمة الثورات بخلوها من السلبيات لأن التاريخ لا يعرف ثورة فى أى عصر مسيرتها خالية من السلبيات وإنما تقاس قيمتها بمدى ما أحدثته من تغيير فى مجتمعها وفى

مجال ما حولها من مجتمعات أخرى، وبهذا المعيار فلقد حققت ثورة ٢٣ يوليو الكثير: غيرت المجتمع المصرى تغييرًا جذريا وحررت الطبقات التى كانت مستعبدة، وغيرت عالمها العربى وأسهمت فى تحريره، وغيرت قارتها الأفريقية وأسهمت في تحريرها بإذكاء روح التحرير وبالمساعدات المباشرة.. كانت.. ومازالت - ثورة تحرير للإنسان والأرض، وثورة اقتلاع لجذور الإستغلال.. ألا يكفى ذلك لتكون ثورة تاريخية.؟

ودون دخول فى التفاصيل، فلقد رفعت الثورة يومًا شعارا بأن الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب ولم تستطع أن تنفذ ذلك بدقة.. وبقيت لأعداء الشعب حريتهم، ولكن الحرية الآن أصبحت للجميع، وهذا عدل، لأن منطق الشرعية الدستورية - بعد الشرعية الثورية - يقتضى إطلاق حق كل القوى فى أن تمارس فاعليتها، وتشارك - على قدم المساواة - فى الحياة السياسية ولذلك فالمسألة - هنا تحتاج إلى تنبه من الفئات التى قامت الثورة من أجلها والتى ستتعرض للضياع من جديد إذا ضاعت هذه الثورة وإنجازاتها. فكما أن أعداء الثورة لهم الحق الآن فى أن يزيفوا الحقائق ويصوروا الانتصارات على أنها هزائم، ويقدموا الأحداث مشوهة لأبناء جيل لم يعاصر هذه الأحداث فإن من واجب الذين قامت الثورة من أجلهم أن يدافعوا عما حققته لهم من إنجازات، وهى ليست قليلة، ومهما حاول المزيفون والمرجفون، فإن الزبد دائما يذهب جفاء، ولا يبقى إلا ما ينفع الناس.. هذا هو قانون التاريخ، ومنطق الواقع، بل هو حكم الله.. ومن أعدل من الله حكما..؟

٩

بدلا من تشويه التاريخ !

آن الأوان - بعد مرور السنين - لكى تلقى ثورة ٢٣ يوليو الإنصاف الواجب، والنظر إليها بنظرة موضوعية، ومتوازنة.. ولكن هل يمكن أن يخفف نهر الحقد المتدفق عليها من فيضانه الدائم.. أو تهدأ نار العداوة فى بعض الصدور.. ليعود منطق العدالة فى تقييم هذه الثورة بدلاً من الاستمرار فى الخصومة وتصفية الحسابات؟

إن ثورة ٢٣ يوليو - مثل جميع الثورات الكبرى - لها أعداء كثيرون، فقد هدمت بناء سياسيا واقتصاديا واجتماعيا فسلبت المنتفعين به امتيازاتهم، وكشفت إنحرافاتهم، وأقامت نظامًا إنحاز لملايين المحرومين من أبناء الشعب، فكان طبيعيًا أن تكتسب عداوة تاريخية مع أبناء الطبقة التى يمثلها تحالف الملك المخلوع والاستعمار وأحزاب الأقلية والإقطاعيين، ويكفى أن نعيد قراءة كتاب مثل «ليالي فاروق» للأستاذ مصطفى أمين، أو «فاروق ملكًا» للأستاذ أحمد بهاء الدين - وليت إحدى دور النشر تعيد طبعهما ليقرأهما أبناء هذا الجيل - ليعرف من لا يعرف كيف كانت تحكم مصر قبل الثورة.

ومن الطبيعى فى مسيرة التاريخ، وكما حدث مع سائر الثورات الأخرى، أن يأتى وقت تخرج فيه بقايا عصر ما قبل الثورة فى محاولة يائسة لاستعادة زمانهم الذى ولى، أو على الأقل للثأر لأنفسهم ولطبقتهم مما نالهم، بتشويه الثورة بالحق وبالباطل، وتجريدها - أمام جيل جديد لم يعايش الحقائق - من أية إيجابيات أو إنجازات، خاصة ومازالت هناك

شخصيات على قيد الحياة من بقايا العصر الماضى، فى الوقت الذى اختفت فيه معظم قيادات ورموز الثورة بالموت أو بالانسحاب، بينما يعنى انقضاء ٤١ عاما أن الملايين من المصريين ممن هم فى سن الخامسة والأربعين وربما أكثر يمكن تضليلهم.. يساعد على ذلك أن وسائل الإعلام كفت منذ سنوات عن الحديث إلى الأجيال الجديدة عما كان عليه الحال قبل الثورة، وعن التذكير بأن الثورة هى التى جعلت حاكم مصر مصريا لأول مرة فى العصر الحديث، وهى التى أرست مبدأ تكافؤ الفرص فى المجتمع المصرى لأول مرة، وبدونها كان مستحيلا أن يظهر علماء أو وزراء أو أساتذة جامعات أو رؤساء شركات من أبناء الفقراء، وهى أمور أصبحت الآن مألوفه.. كما أن عروبة مصر التى تبدو الآن من البديهيات لم تطرح كنظرية سياسية متكاملة إلا بعد الثورة، وأن قضية رفض التبعية وحماية الكرامة الوطنية لم تكن يوما قضية قومية كما أصبحت بفضل الثورة.. كما أن انتقال مصر إلى الصناعة لم يكن ممكنا بأى حال قبل الثورة بالشكل الذى تمت به.

من الطبيعى أيضًا – بعد هذه السنوات – أن تناقش أخطاء الثورة وقادتها بكل صراحة وموضوعية، إبتداء من غياب الديمقراطية، وفتح المعتقلات، والتعذيب – وهى ممارسات مدانة فى كل عصر – إلى نكسة الوحدة مع سوريا، وهزيمة ١٩٦٧، وهى أخطاء كبيرة ينبغى ألا تعمينا عما فى الكفة الأخرى من الميزان فى التاريخ، وأولها الثورة الفرنسية – أم الحريات – فقد ارتكبت أخطاء كبرى كثيرة والفرنسيين يمارسون نقد ثورتهم دون تلطيخها. ولا أحد يدافع عن الأخطاء فى أى وقت ولا أى سبب. بل يجب مناقشتها وتحليلها لتكون دروسا مفيدة للمستقبل، ولكن دون إغفال ما حققته الثورة، فإن إنكاره خسارة من رصيد التقدم الذى حققه الشعب المصرى.. وإذا كان العداء لعبدالناصر فى بعض القلوب لا يدع مكانًا لحب شىء مما حققته ثورته، فلقد رحل عبد الناصر منذ ٢٨ عامًا

وتغيرت أشياء كثيرة فى المجتمع، ولم يعد إلا زعيما من بين زعماء وقادة مصر التاريخيين، وإذا كان البعض قد جعلوا قضيتهم مطاردة ما يسمونه «الناصرية»، فليس هناك وجود لها بالمعنى الذى يتصورونه، فإن كانوا يقصدون قرارات عبد الناصر فقد كانت رهنا بوقتها ولم تعد صالحة لعصر مختلف.. وإن كانوا يقصدون معارك عبد الناصر، فقد تغيرت الصداقات والعداوات والمعارك وبالتالى لم تعد مفاهيمه قائمة كما كانت فى زمنه.. وإن كانوا يقصدون الروح الوطنية التى نفخها عبد الناصر، فلم تكن من صنعه وحده، ولكنها كانت حصادًا لما زرعه قبله زعماء عظام فى التاريخ المصرى من عرابى، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، بقدر ما كانت تجسيدًا للفكرة الوطنية التى غرسها رفاعه الطهطاوى ومحمد عبده ولطفى السيد وطه حسين والعقاد.. إلخ. باختصار إن عبد الناصر لم يكن إلا نتاجًا تاريخيًّا لمصر بكل ما تراكم فيها عبر العصور.. وإذا كان قد أخطأ فى مواقف، فقد أصاب فى مواقف أخرى، ومن حقه علينا، ومن حق وطننا علينا ألا نظلم أحدا من رجالاتنا العظام.

المشكلة الآن هى أن وثائق الثورة مازالت غائبة – بعد ٤١ عامًا – ولذلك فإن تاريخها الحقيقى لم يكتب بعد، وليس من الطبيعى أن نطالب بتشكيل لجان حكومية لكتابة التاريخ، ولكن يكفى الإفراج ولو عن بعض الوثائق وإتاحة الفرصة أمام المؤرخين لدراستها، فهذا وحده هو الطريق لإنصاف الثورة من انفعال المتحمسين لها أو ضدها لأسباب غير موضوعية، كما أنه الوسيلة الوحيدة لقطع الطريق على محترفى تزييف وتشويه التاريخ.

ربما تصور البعض أن انهيار المعسكر الشيوعى قد أدى إلى انتعاش هائل لليمين – دوليا ومحليا – وأن ما غرسته الثورات الوطنية لم يعد له مكان الآن فى عصر الردة الكبرى، لكن انهيار اليسار المدوى وانتصار اليمين

الساحق ليس إلا لحظة من التحول التاريخى سوف تصل بعد فترة إلى نقطة التوازن، فتلقى الثورات الوطنية - ومنها ثورة ٢٣ يوليو - ما تستحقه من الانصاف. وبالقدر الذى حققته من ايجابيات فى تطور المجتمع المصرى دون زيادة.. أو نقصان.!

(١٠)

«كريا كليف» .. وثورة ٢٣ يوليو !

دخلت التاريخ قصة طريفة بطلها آخر رائد سوفيتى للفضاء هو (سيرجى كريا كليف) .. فقد صعد الرجل إلى مركبة فضاء سابحة خارج الكرة الأرضية ، وكان جورباتشوف هو الذى يحكم فى ذلك الوقت ، وكان الاتحاد السوفيتى لا يزال قائدًا للمعسكر الشيوعى ، ومبشرًا بجنة الشيوعيين الموعودة التى رسمها ماركس ولينين .. وظل (كريا كليف) فى الفضاء شهورًا على ارتفاع ٣٥٠كيلو مترا ، فلما جاء موعد عودته إلى الأرض وفق البرنامج كان كل شىء فى الاتحاد السوفيتى ، وفى العالم قد تغير .

أثناء الفترة التى عاشها الرجل معلقا فى الفضاء كانت الشيوعية قد أعلنت إفلاسها ، وسقط جورباتشوف ، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، وسقطت النظم الاشتراكية ، وحل حلف وارسو نفسه وإنتهى وجود منظمة (الكوميكون) .. وتفاقمت الأزمة الاقتصادية إلى حد أن عجزت روسيا عن تمويل عودة رائد الفضاء ، فبقى (كرياكليف) خمسة أشهر إضافية معلقا فى الفضاء، إلى أن أكمل ٢٢٠ يوما بعيدًا عن العالم الصاخب بالحركة والتغير، إلى أن أمكن تدبير المال اللازم لإطلاق صاروخ لرحلة عودته ، فعاد فى حالة يرثى لها، من الاضطراب العقلى والنفسى ولم يعد قادرًا على فهم ما حدث ويحدث لبلاده . كان الرجل مسكينًا .. فقد ترك بلاده وهى دولة عظمى ، وعاد ليجدها قد أصبحت ١٥ دولة مستقلة (!) وأراد أن يذهب إلى مدينته (لينينجراد) فلم يجد مدينة بهذا الاسم ، ووجدها قد أصبحت باسم القيصر القديم (بطرسبورج) .. ولم يستطع عقله أن يستوعب كيف أن

بلاده حين تركها كانت تقدم معونات لدول العالم الثالث لتساعدها على التحرر من الاستعمار والتبعية ومن النفوذ الأمريكية ، فوجد بلاده هى التى تتلقى المساعدات من فائض الإنتاج الأوروبى والأمريكى ، وتطلب قروضا من البنك الدولى الذى كانت تعتبره قاعدة للإمبريالية .. وترك بلاده وهى تهدد الغرب بأسلحة نووية فائقة القوة فوجد هذه الأسلحة وأسرارها معروضة للبيع ، وعلماء بلاده يهاجرون منها إلى أى بلد يدفع لهم أجورا تكفى طعامهم .. وترك بلاده والسيادة فيها لأعضاء الحزب الشيوعى فعاد ليجد السيادة للمافيا وتجار المخدرات والسوق السوداء وتجار الرقيق الأبيض . ! وأصبح الرجل مخبولا ومثيرا للسخرية وعبرة لمن يعتبر .

وقصة (كريا كليف) ليست تكرارا لقصة أهل الكهف ، فأهل الكهف ناموا أكثر من ثلاثمائة عام واستيقظوا ليجدوا أنفسهم فى عصر آخر ومع بشر آخرين .. أما هو فقد ظل يقظًا .. أو توهم أنه يقظ . وابتعد عن واقع بلاده وعن عالم البشر وظن أن كل شىء سيجده كما كان ولكن كل شىء تغير فيما عداه هو ، وهذا ما جعله يبدو مثل أهل الكهف من ناحية الانفصال عن الواقع ، وعدم القدرة على إدراك التغير الذى حدث .

القصة ليست من صنع الخيال .. وهى قابلة للتكرار ، كم (كريا كليف) عندنا ؟

أظن أن عندنا من أمثاله الكثير .. غابوا عن الأحداث وتطوراتها ، ليس بالسفر فى رحلة إلى خارج الأرض ، ولكن لأنهم ابتعدوا عن إدراك حقائق وتطورات الأحداث التى تجرى أمام عيونهم ويظنون أنهم يرونها ويتابعونها ويفهمونها ، والحقيقة غير ذلك .. كثيرون ابتعدوا بفكرهم وعقولهم وأرواحهم خلال فترة من الزمان امتدت منذ عام ١٩٥٢ حتى الآن.. وكان ابتعادهم لأسباب مختلفة .. بعضهم سافر إلى عالم من الأوهام نتيجة إصرارهم على رفض الواقع .. وبعضهم سكن غابات حيث تخفى

الوحوش حقيقتها تحت جلود البشر ، وبعضهم سافر إلى عالم المخدرات بأنواعها المادية والمعنوية .

أمثال هؤلاء لم يدركوا ماذا حدث بالضبط يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وما بعده .. ولذلك فهم حتى الآن مساكين .. بعضهم يؤكد أن ما حدث لم يكن ثورة .. بعضهم الآخر يصر على أنها كانت انقلابا عسكريا على (حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم) الذى كانوا يقبلون يده الكريمة ويعتبرون ذلك منتهى التشريف .. وهم - مساكين ! - يتصورون أن الثورة أفسدت مصر لأنها أرادت (العزة والكرامة) للمصريين ، وجعلت للعمال والفلاحين صوتًا فى تقرير شئون الوطن وحقًا دستوريا لا يستطيع أحد أن يسلبه منهم .. وأعطت الطبقات الفقيرة من كانوا يسمون (الرعاع) حق التعليم المجانى ، وأرست (العدالة الاجتماعية) و (تكافؤ الفرص) ففتحت الطريق أمام أبناء الفقراء ليصبح منهم وزراء وأساتذة فى الجامعات وسفراء ودخلوا بكفاءتهم - فى دائرة (الصفوة) بينما خرج منها الكسالى ، والعاطلون بالوراثة ، ومحدودو الذكاء ، بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية .

هناك من يعجز حتى الآن عن إدراك حقيقة هذا التغير الجوهرى فى تركيب المجتمع المصرى ، ولا يستوعب عقله كيف أصبح الطريق مفتوحًا أمام ابن موظف صغير ، أو ابن فلاح ، أو ابن عامل بسيط ، أو تاجر فقير، لينتقل من (القاع) إلى (القمة) .. ومنذ ٤٧ عامًا وهم يعيشون حالة من الاستنكار تثير الإشفاق .

من أمثال (كريا كليف) عندنا كثيرون ..

الذين لا يستطيعون أن يفرقوا حتى الآن بين الثورة وإيجابياتها وبين عدائهم لعبد الناصر كزعيم فى مرحلة تاريخية .. عبد الناصر مات .. ولكن الثورة - بمبادئها - بقيت .. وإن كان الزمن تغير ، وظهرت سلبيات الثورة وكان لابد من (التصحيح) ولكن الجوهر ما زال باقيا فى الأعماق :

الكرامة الوطنية .. الحرص على الاستقلال .. التطلع إلى بناء وطن قوى مهما أصاب هذا الحلم من هزائم على يد الأعداء ومؤامرات على يد الأصدقاء .. مبدأ (المساواة) بين المصريين .. لا فضل لمصرى على آخر إلا بالعمل . . العدالة.. تكافؤ الفرص.. الإيمان بأن الروح العربية سوف تتغلب على مؤامرات التفرقة .. التنمية ممكنة .. وبناء قاعدة للصناعة وللعلم والتكنولوجيا ممكن .. دوائر الهوية المصرية العربية الإسلامية الإفريقية متداخلة ومتكاملة .

مبادئ استقرت فى ضمائر المصريين .. حتى للأجيال الجديدة التى لم تكن قد ولدت حيث تحركت الدبابات لتحاصر قصر عابدين ، ولم تخفق قلوبها ساعة رحيل (المليك المفدى) إلى حيث عاش فى (المكان المناسب) فى الحانات والمراقص وبين الغانيات .. وحيث كان يتكلم بلغات عديدة ليس من بينها اللغة العربية التى لم يكن يرتاح حين يضطر إلى سماعها أو الحديث بها فى المناسبات .

هبط هؤلاء من أمثال (كرياكليف) علينا من رحلتهم الطويلة فى الزمان.. حيث كانوا فى مدارات بعيدة عن أرضنا التى عشنا عليها الانتصارات والانكساريات الكبرى لثورة ٢٣ يوليو .. وحيث رفعنا الرءوس وذرفنا الدموع .. وحيث عايشنا الأبطال والمنافقين والانتهازيين .. وحيث بنينا يعرقنا وهدم لنا أعداؤنا بعض ما بنيناه .. كنا نحن نكتوى بنار الأحداث صعودًا وهبوطًا .. وكانوا هم فى عزلتهم .. ثم عادوا لينكروا علينا حياتنا التى عشناها واحدًا وأربعين عامًا .. وقد أنضجتنا الأحداث والمحن ، وأصبحنا الآن أعمق تجربة وأكثر دراية بمعادن الرجال .. وأشد تمسكا بإيجابيات ثورة ٢٣ يوليو ورفضا لسلبياتها.. وأكثر قدرة على اختيار الطريق الصحيح .. ولم نعد نقدس أشخاصا .. ولكننا صرنا نقدس الوطن والمبادئ .

وأصبحنا نضع جمال عبد الناصر فى موضعه من التاريخ كقائد أراد وعمل بإخلاص على تحقيق حلم كبير - أكبر مما كانت تسمح به ظروف بلده وعصره - فنجح فى جانب وفشل فى جانب . تغيرت الظروف وعلينا أن نحقق من الحلم بقدر ما لدينا من قدرة وإخلاص .. ولم يعد معنا .. ولن يعود .. فليطمئن أعداء عبد الناصر إلى أنه لن يعود ، وأن الزمن تغير .. ولكن عليهم ألا يطمئنوا .. لآن مصر أيضا لن تعود إلى الوراء .. ولن تغلق كتاب ثورة ٢٣ يوليو كأنه لم يكن .. وليذهبوا ليروا كيف تعامل (كرياكليف) مع متغيرات بلده قبل أن يصبحوا مثله ضحايا لأمراض عقلية ونفسية يصعب علاجها .. أبسطها مرض رفض الماضى والرغبة فى تغييره.. وعدم القدرة على فهم الحاضر والتعامل معه بواقعية .

أما تزوير التاريخ فتلك قضية أخرى .

١١
عـــام الوثائق

ظواهر كثيرة ميزت عام ١٩٨٦ فهو مثلاً كسابقه يمكن أن يسمى عام الإرهاب .. أو عام الحروب الصغيرة .. أو عام المخابرات ومؤامراتها على امتداد خريطة العالم ، ظواهر كثيرة ومسميات كلها صحيحة ، لكن هناك وجهًا آخر يميز ذلك العام الذى سقط فى بئر الماضى ، هو أنه عام الوثائق .

إذ انزاحت فيه أستار السرية - طوعًا أو كرهًا - عن أوراق لها أهميتها البالغة فظهرت فيه حقائق جديدة لم تكن معروفة بعضها يشيب لهوله الولدان كما يقولون ، وبعضها الآخر يدفع بكثير من الأفكار والوقائع المعروفة من منطقة الظنون أو الترجيح إلى منطقة اليقين ، وهذا شىء ليس بالقليل .

فما تكشف حول الدور الأمريكى المزدوج فى صفقة توريد أسلحة سرية إلى إيران وتقديم معلومات سرية إلى العراق نموذج لما كان من الصعب تصديقه ، ليس فقط بالنسبة للشعب الأمريكى الذى استيقظ على حقيقة أنه خدع لفترة طويلة ، ولا بالنسبة للكونجرس الذى هاله أن تدور من وراء ظهره مسائل خطيرة تتصل باختصاصه دون أن تعرض عليه ، ولا حتى بالنسبة للديمقراطية التى أصبح شعارها علما وشعلتها رمزا للأمريكيين ، ولا بالنسبة لأوربا التى وجدت نفسها مخدوعة بإلحاح الإدارة الأمريكية عليها لتقاطع إيران الإرهاب وتمنع كل اتصال معها ، ثم اكتشفت أن المحرض عاش على وفاق مع الإرهاب ويمده بالسلاح . ولكن فوق ذلك كله

– بالنسبة للعرب الذين جاءتهم الحقيقة العارية أبشع مما يحتمل خيالهم .. كل هذا الانهيار فى واجهات القيم والأخلاق التى كانت آخر ورقة توت تستر العلاقات الدولية سقطت، ما كان، يمكن تصديقها لولا الوثائق والحقائق التى أبت الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٨٦ أن تمضى إلى حال سبيلها قبل أن تعريها .

قبل أن يمضى العام جاءنا كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن ملفات حرب السويس ليكون نقطة بدء جديدة فى الكتابة التاريخية والسياسية .

حيث كان ممكنًا قبله أن نسمح لكل من هب ودب بأن يقول رأيه ورؤياه للأحداث ونعتبر ذلك تاريخا، مما أدى إلى تضارب هؤلاء الذين ظهروا كمؤرخين فى آخر الزمان . ولكن بعد هذا الكتاب لم يعد ممكنا لمن أراد أن يروى واقعة أو يصدر حكما أو يقرر حقيقة أن يطلق القول على عواهنه ، أو يدعى أمامنا الحكمة والمعرفة إلا بأن يقدم على كل قول وثيقة تؤيده . ميزة هذا الكتاب أنه نموذج لعمل علمى فى التاريخ السياسى رفيع المستوى . وهو يؤكد حقيقة أن الأستاذ هيكل يفكر كعالم ويكتب كفنان .

وإذا كان كتاب ملفات السويس قد هدانا إلى مفتاح فهم حقيقة الصراع فى الشرق الأوسط وحوله فى قمة من قمم هذا الصراع فى حرب السويس فإنه يمهد لكتاب ثان عن حرب ٦٧ وكتاب ثالث عن حرب أكتوبر ٧٣ وكلاهما بنفس المنهج وبهذا تقول إن عام ٨٦ بالنسبة لنا أيضا كان عام الوثائق .

وإذا كان الأستاذ هيكل قد ترك القمة الأولى من قمم الصراع وهى حرب ٤٨ – ولابد أن لديه أسبابا لذلك – فقد جاءتنا وثائقها هذه المرة من دار الوثائق الإسرائيلية لكى تكتمل أمامنا الصورة واضحة بكل تفصيلاتها . فقد أفرجت إسرائيل هذا العام عن بعض محتويات أرشيفها الرسمى وكشفت

وثائق تتعلق لعام ٤٨ وما قبله تمثل مفاجآت رغم أن ما سمحت به ليس إلا القليل، وما زال قرار حظر التداول مفروضًا على كثير من ملفات هذه الفترة . ورغم أن أحد الباحثين الإسرائيليين رفع دعوى أمام المحكمة العليا فى إسرائيل فى أكتوبر الماضى يطلب الحكم بإلزام باطلاع الباحثين على الملفات الخاصة بمذابح كثيرة ارتكبها الجماعات والعصابات الإسرائيلية قبيل وأثناء حرب ٤٨ إلا أن المحكمة رفضت الدعوى ، ومع ذلك بدأت بعض الوثائق تتسرب لتكشف حقائق جديدة حول ما جرى من مذابح فى قرية نصر الدين بالقرب من طبريا ، أو فى قرية دويما شرق الخليل التى ذبح فيها عشرات من الفلاحين الفلسطينيين فى أكتوبر ١٩٤٨ وأعدم بهدوء عشرات آخرون على يد القوات العسكرية الإسرائيلية وليست هذه إلا أمثلة هناك عشرات بل مئات منها .

والوثائق التى سمح بنشرها وتحدثت عنها الصحف على قلتها تكفى ليعرف العالم حقيقة ما جرى فى تلك الفترة على يد عصابات أرجون (مناحم بيجن) وشتيرين وغيرهما من واقع تقاريرها وأوراق قادتها لتنفيذ استراتيجية عدوانية وإرهابية تقوم على الضرب بشدة فى العرب على أوسع نطاق دون اعتبار لمسائل القانون أوالشرعية أوالأخلاق ليشمل الضرب على كل شىء .. ضرب المواصلات.. وضرب المحلات التجارية.. وضرب الأفراد.. وضرب كل ما هو فلسطينى لمجرد أنه فلسطينى . جاءت الوثائق لكى تساعد على فهم عبارة جاءت فى مذكرات بن جوريون عن عام ٤٨ : (يجب أن نكون مستعدين لكى نضرب ضربة حاسمة، وأن ندمر، ونطرد السكان، لنأخذ مكانهم) وتكشف الوثائق أيضا فى ١٠إبريل ٤٨ حين ذبحت عصابة أرجون وعصابة شتيرين ٢٥٠ فلسطينيا من أبناء القرية فيهم رجال وأطفال ونساء . أما المذابح التى ارتكبها الهاجاناه (جيش إسرائيل فيما بعد) فإن وقائعها فى ملفات غير مسموح بتداولها وما زال عليها خاتم (سرى جدا) بحجة أن كشف محتواها يضر المصلحة العامة للدولة .

وجاءت الوثائق أيضا لتؤيد الفكرة المحورية فى كتاب (ملفات السويس) حول استراتيجية القوى الكبرى فى منطقة الشرق الأوسط بل وتدلنا على البدايات الأولى لتنفيذها ، وثيقة من الوثائق التى تناقلتها الصحف (تكشف عن اجتماع تم يومى الأول والثانى من يناير ٤٨ حضره ديفيد بن جوريون و١٧ شخصية يهودية . وتقرر فيه تصفية ٢٢ من قيادات الفلسطينيين جسديا ، ووضعت فى هذا الاجتماع قائمة بأسمائهم وعناوينهم فى القدس ويافا وحيفا وصفد ، ويقول الصحفى الإسرائيلى يورى ملشتاين المتخصص فى تاريخ الحروب الإسرائيلية أنه بعد ٤ أيام من هذا الاجتماع تلقت وحدة من رجال حرب العصابات من الهاجاناه الأمر بالتنفيذ .

ووثيقة أخرى تكشف عن حوار دار بين زعماء إسرائيل عقب إعلانها ، عرض بن جوريون إعلان حدود الدولة الجديدة ولكن بنحاس روزن الذى أصبح وزيرا للعدل اعترض وطالبهم بالعدول عن هذا القرار لأسباب قانونية وقال لهم (إن كل شىء ممكن.. بوسعنا أن نعلن دولة ولا نعلن حدودها.. فالرجال هم الذين يشعون القانون) وقال فى اجتماع تال: (إننا نعتزم احتلال الخليل والقدس بكاملهما ونضمهما لدولتنا فلم نتخذ الآن قرارًا يلزمنا بحدود) وتقول الوثائق أن قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة كان يعطى لإسرائيل٥٥٪من أرض فلسطين ولكن فى أعقاب الهدنة سنة٤٨ كانت إسرائيل تضع يدها على٨٠٪ منها، وبعد أن كان ٦٦٠ ألف يهودى لا يملكون غير ٦٪ من الأراضى تغيرت الخريطة تمامًا . وكدليل على شهية إسرائيل المفتوحة فى ذلك الوقت كتب بن جوريون فى مذكراته فى ٢٤مايو٤٨ يقول: (عندما نحطم الجيش الأردنى ونقصف عمان سوف نستولى على الأردن وعندئذ ستسقط سوريا أيضًا) .

والمثير من وثائق الأرشيف الإسرائيلى الرسمى ما يكفى عن واقعة ملخصها أن الرئيس السورى شكرى القوتلى أرسل مبعوثا خاصا إلى باريس

ليقترح على الإسرائيليين تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ويرتبطان معا باتحاد كونفيدرالى ، ولكن زعماء الصهيونية رفضوا الاقتراح . وهى واقعة دامغة فى نفى الادعاءات الرائجة الآن من أن العرب هم الذين أضاعوا فرصتهم برفض من جانبه سنة ٤٩ عقد لقاء وجها لوجه للتفاوض - من أجل السلام بين سوريا وإسرائيل وكتب بن جوريون فى مذكراته يوم ١٦ أبريل ١٩٤٩ : (السوريون اقترحوا سلاما منفصلا مع إسرائيل وتعاونا عسكريا ولكنهم طلبوا نصف نهر طبرية وعودة الحال على ما كان عليه وقد طلبت أن يقولوا للسوريين بشكل واضح أن عليهم أن يوقعوا فقط اتفاق هدنة) .

وتكشف الوثائق أيضا أن مأساة اللاجئين الفلسطينيين لم تشغل زعماء إسرائيل ، وكان موسى شاريت مقتنعا بأن الزمن سيكون لعب دورًا فى حل المشكلة ،وأصدرت وزارته توصية تقول إن هؤلاء اللاجئين سيجدون لأنفسهم مكانًا فى أماكن هجرتهم أو بالاستسلام لتبقى أغلبيتهم بلا ثقل أو تندمج فى الكتل الأكثر فقرا فى العالم العربى .

وفى الوثائق التى سمح بنشرها تقرير من مخابرات الهاجاناه يقول إن ٧٠٪من اللاجئين الفلسطينيين تخلوا عن بيوتهم فى أعقاب عمليات هجومية من شتيرن وارجون وأن أول موجة منهم شملت ٤٠٠ ألف قبل أول يونيو و٣٠٠ ألف انضموا إليهم فى نهاية العام، وأن مدنًا كثيرة و٣٥٠ قرية قد أخليت من ساكنيها العرب، وخلال عامى ٤٩ و٥٠ تم طرد سكان قرى المجدل فى الجنوب تحت إشراف الحكام العسكريين، وجزء من مذكرات إسحق رابين الذى صادرته الرقابة العسكرية فى إسرائيل ونشر فى أمريكا أن الجيش الإسرائيلى طرد بأمر بن جوريون٥٠ألف فلسطينى من اللد والرملة أثناء غزوهما فى يوليو ١٩٤٨ . ولذلك أعلن بن جوريون فى إحدى الوثائق : (أرض مع العرب تختلف تماما عن

أرض بلا عرب) وعلق بن جوريون على مشهد رحيل الفلسطينيين عن حيفا بقوله: (ما أروع هذا المشهد..!).

على أية حال تكفى الإشارة إلى أن هذه الوثائق أصبح الإطلاع عليها ممكنًا عسى أن يجمعها لنا باحث محقق مدقق يستطيع أن يقدم لنا - بالحقائق والوثائق وليس بمجرد الكلام المنمق - صورة متكاملة لذروة سابقة من ذرى الصراع فى الشرق الأوسط ومن حوله كانت لها آثار بعيدة وعميقة من الصعب حصرها أو حتى الإلمام بأبعادها كاملة حتى الآن ، وإن كانت بعض الحقائق التى تضمها هذه الوثائق معروفة من قبل إلا أن حديث الوثائق يجهز على مرحلة الظنون ، ويدفعنا إلى مرحلة اليقين ويجعل عام ٨٦ .. عام الوثائق بداية وعلامة لكل ما بعده من أعوام .. لكى نعيش على الحقائق ولا نستمع إلا إلى حديث موثق له ما يسانده وما يؤيده من الواقع ، ولتسقط مدرسة الخطابة والكلام المرسل بغير دليل فى صياغة التاريخ . كما تسقط مدارس تزوير التاريخ التى شهدنا من أساتذتها وتلاميذها الكثير قبل أن تسقط أوراق ٨٦ .

(١٢)

ثورة ٢٣ يوليو .. والعقل العربى

لماذا يتجاهل المؤرخون دور ثورة ٢٣ يوليو فى إيقاظ العقل العربى ؟إن هذه الثورة لم تكن فقط الإصلاح الزراعى أو إشراك الفلاحين والعمال لأول مرة فى تاريخ مصر فى الإدارة والمجالس التشريعية ، كما لم تكن فقط هى حركة التصنيع وبناء السد العالى (الذى أنقذ مصر من الجوع ٨ سنوات متتالية) .. ولا هى فقط المعارك مع الاستعمار بأشكاله المختلفة ، ومع الرجعية بأسلحتها الشرسة .. فهذه كلها متغيرات أو وسائل تخطىء فيها وتصيب ، وقابلة للتعديل مع تغير الزمان والظروف .. ولكن هناك ثوابت أولى بالدراسة والتفهم .. وأولها أن هذه الثورة كانت تعبيرا عن مرحلة التغيير الجوهرى والجذرى بل كانت - فى حقيقتها - حركة تنويرية كبرى .. كان هدفها ، إيقاظ العالم العربى من سباته العميق ليدرك مدى التخلف والجمود الذى وصل إليه ويزداد مع سرعة التقدم العلمى والتكنولوجى والحضارى الذى تقفز إليه أمريكا وأوربا واليابان ، كانت الثورة هى رد الفعل الطبيعى للوعى بحالة التخلف والتراجع الحضارى ، وللطموح القومى فى أن يكون للعرب مكان فى عالم الأقوياء .

كانت القضية - على المستوى العقلى - هى : هل العالم ثابت أم متغير .. وهل نبقى نحن فى ثبات على ما نحن فيه أم نتغير .. وماذا نغير .. وكيف . ؟ وهذه فى مجملها إشكاليات بالغة الدقة والصعوبة ، تبدو فلسفية ، ولكن يترتب عليها إقامة نسق من الأفكار والقيم وأنماط من السلوك والعمل .. كانت الثورة تواجه العقل العربى الذى استسلم للوهم

والخرافة ، والذى أنشأ لنفسه منظومة مريحة - أقرب إلى المخدرات - تبدأ من أننا خير أمة ، وحالنا على ما هو عليه الآن هو أحسن حال ، وكل تغيير بدعة.. ضلالة.. الخ وأن أفضل طرق الإصلاح أن نعود إلى الوراء .. إلى الماضى .. نتراجع إلى أساليب الحياة والسلوك فى عصر الخيمة والكهف ؟ وكان العقل العربى أكثر استجابة لتلك الدعوة - بالنكوص والارتداد ، أو على الأقل بالجمود والرضا عن كل ما هو قائم والحرص عليه ومقاومة التغيير حتى الموت ! - وكانت (ميكانيزمات) العقل العربى جاهزة بوسائل دفاعية هائلة من اتهام كل من يفكر فى مواكبة العصر وملاحقة المتقدمين فى علومهم وابتكاراتهم بالشيوعية مرة ، والخروج على الإسلام مرة أخرى ، والعمالة ، لأعداء العرب الذين يريدون اقتلاع الجذور الأصلية لهذه الأمة العريقة الخالدة .. الخ .

ولابد أن نعترف بأن ثورة ٢٣ يوليو لم تستطع أن تحقق كل ما أرادته فى هذا المجال .. كانت تريد أن تنقل العقل العربى - وبالتالى الإنسان العربى - من الحياة فى القرنين السادس والسابع إلى الحياة فى القرن العشرين (مع الاحتفاظ بجوهر ومبادىء المعجزة الكبرى - رسالة الإسلامية التقدمية - التى تحققت فى القرن السادس والتى ستبقى إلى يوم الدين) .. كانت تريد أن يصبح فى العالم العربى جامعات حقيقية ، وعلماء حقيقيون، واختراعات ، وأبحاث ، وتكنولوجيا ، وثقافة ، وحضارة .. من إبداع العرب إسهاما فى تيار الحضارة العام من الجامعات ، والمراكز العلمية المتخصصة فى البحوث ، وأكاديمية للبحث العلمى .. إلخ يتوازى مع ذلك كله مجلس أعلى للثاقفة ، وهيئة للكتاب ، ووزارة للثقافة ، وهيئة مسرح ، وهيئة سينما ، وتليفزيون . وكانت هذه هى الأجهزة أو الوسائل لتحقيق (التغيير) و (التنوير) .. ولم تكن غاية فى ذاتها .

ولكن العقل العربى لم يستطع أن يستوعب الهدف البعيد وراء كل هذه الوسائل ، فلم يدرك أن القضية أساسا هى قضية (التغيير) فى كل شىء ،

وأن هذا التغيير يبدأ من (العقل) وليست هناك بداية أخرى .. ولذلك استطاعت القوة المضادة سواء داخل المجتمع المصرى أو فى العالم العربى أو خارجه أن تتكتل وتحيط العقل العربى بسياج مسلح من الفكر الرجعى ، ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧ فرصة تاريخية نادرة أحسنت القوى الرجعية استغلالها ، فأخذت تخرج من مكامنها ، وتخلع عنها (التقية) وتكشف أهدافها .. وترفع مبادئها.. وأصبح زحفها المدمر هو المنتصر وهو الذى نشكو بسببه من تدهور القيم وانتشار السلبية وعدم الولاء وغياب القدوة وانهيار الأخلاق .. ثم تعلو أصوات محترفى قلب الحقائق بالقول بأن الثورة هى السبب فى ذلك كله بينما كانت هى الضحية .. وأعداء الثورة كانوا دائما - وما زالوا - أقوياء ، وأذكياء ، وأغنياء ، فامتلكوا وسائل القتل المادى والمعنوى) كما امتلكوا القتلة المأجورين .. قتلوا الفكرة أو كادوا .. ووجهوا أسلحة التدمير إلى العقل العربى باستخدام مناهج السوفسطائية (اليونانية - قبل سقراط) الذين كانوا قادرين - بالمغالطات المنطقية - على إظهار الحق باطلا ، والباطل حقا ، وإقناع الناس بالشىء ونقيضه حسب الأحوال .. !

كان العقل العربى متخلفا ، وكان أقرب إلى التجاوب مع الدعوة إلى (الثبات) منه إلى قبول (التغير) أو التجارب معه ، وكانت قضايا (التغير) تستلزم نصالا غير عادى والدخول فى معارك صعبة ، وكان العقل العربى وما زال - أقرب إلى الإستسهال والاسترخاء ، فلم يقدر على إستيعاب مقاصد ومبادىء ثورة ٢٣ يوليو (الأعمق والأبعد من المبادىء الستة ومن الميثاق) وساعد على ذلك أمران : أولهما أن المعارضة للثورة سخرت كل أسلحتها المنطقية والسياسية لتشويه كل فكرة وكل عمل وكل شخصية تنتمى إلى الثورة ، مستخدمة الأسلحة المحرمة أخلاقيا .. وثانيهما أن عددا غير قليل من كانوا محسوبين على الثورة ، استغلوها بانتهازية بالغة، وجعلوا مبدأ .. (أن الثورى أول من يضحى وآخر من يستفيد) فى

وضع مقلوب فكانوا هم أول وأكبر من استفادوا وكونوا ثروات وتركوا التضحيات للشعب .. وكانت هذه حجة فى يد خصوم الثورة نالت من نقائها وطهارتها .

وحتى عندما نجحت ثورة ٢٣ يوليو فى بلورة نظرية القومية العربية واكتسبت حماس الجماهير من المحيط إلى الخليج ، استطاعت القوى الرجعية أن تقدم للعقل العربى (نظرية مضادة) تكرس التمزق والتبعية .

باختصار كانت ثورة ٢٣ يوليو تريد أن تغرس روح (التغيير) وكانت هناك قوى بالغة القوة والشراسة تقاوم وتغرس روح (الثبات) وما زالت هذه هى قضيتنا حتى اليوم .

(ثبات) أم (تغير) ؟ !

هذا هو التحدى المطروح على العقل العربى منذ يوليو ١٩٥٢ حتى الآن .

(١٣)

هل انتهت ثورة يوليو ؟

هل انتهت ثورة ٢٣ يوليو بعد هذه الأعوام وبمعنى آخر هل يمكن أن تستمر ثورة كل هذه الأعوام ثم تبقى بعدها فتبدو بذلك وكأنها ثورة بلا نهاية.

هذا السؤال ليس مطروحا الآن لأول مرة ولكنه طرح قبل ذلك بسنوات واختلفت الإجابة عليه من مرحلة لأخرى. فى مرحلة كانت الإجابة هى أن الثورة انتهت وعاد المجتمع المصرى إلى السير بحياته الطبيعية. وأساس هذا الرأى أن الثورة هى لحظة من الزمان يتوقف فيها كل شىء، وتتفجر طاقات جديدة تهدم المجتمع القديم وتقيم أسس المجتمع الجديد، ثم ينقشع الغبار وتعود الحياة الهادئة ولكن فى طريق جديد ولصالح طبقات جديدة وفى اتجاه أهداف جديدة. وفى مرحلة أخرى كانت الإجابة أن الثورة باقية ومستمرة لأنها فى حقيقتها أسلوب حياة لا يرضى بالاستسلام للواقع ولكن يصر على تغييره بالقوة وبسرعة دون انتظار التغير التدريجى البطىء الذى يحدث فى الحياة العادية.

وطالت الفترة التى ساد فيها الرأى بأن الثورة قد انتهت وكان لأصحاب هذا الرأى أسباب تؤيدهم، منها أن الثورة هى لحظة استثنائية فى التاريخ والاستثناء مقبول حين تكون هناك دواع له، لكنه لا ينقلب إلى قاعدة تحكم الحياة إلى الأبد، ومنها أيضا أن قادة الثورة الذين فجروها يوم ٢٣ يوليو انتهت أدوارهم ولم يعد على المسرح منهم أحد فهل يمكن أن تبقى ثورة غاب عنها قادتها..؟ ومنها أيضا أن المجتمع المصرى اجتاز مرحلة

الشرعية الثورية ودخل منذ سنوات فى مرحلة جديدة هى مرحلة الشرعية الدستورية، وبعد أن كان قادة الثورة هم الدستور وهم القانون وهم ضمير المجتمع، استرد المجتمع حقه فى أن يقول كلمته، وفى أن يفعل ما يتفق مع إرادته وفى أن يشارك ويناقش قبل صدور القرار وليس بعده.

وبالرغم من وجاهة ما قيل. وبصرف النظر عن نوايا القائلين فمنهم من كان مخلصا وسليم النية ومنهم من كان عدوا للثورة يتربص لها منذ بدايتها إلى أن حانت فرصة ظنها سانحة لينقض على كل شىء تحقق فيها، وكل قيادة تصدت لها ليهدم سنوات الثورة ويلوثها، ويأخذ من سلبياتها ما يشوه به الإيجابيات الكثيرة التى غيرت الحياة والإنسان فى المجتمع المصرى. كما غيرت مكانة مصر من خريطة العالم السياسية.. فإن القضية تستحق التأمل بموضوعية لنحدد موقفنا ونتحسس مواضع أقدامنا على الطريق الصحيح.

وفى اعتقادى أن الثورة بطبيعتها لها سمات تميزها. أولها أنها حركة شعبية، ينتفض بها الشعب كله ليأخذ أموره بيده وليس من صالحنا أن نتصور أن دور الجماهير قد انتهى. لأننا نحتاج إلى هذه الروح الثورية لتبقى لعشرات السنين القادمة إلى أن يتم بناء المجتمع المصرى العصرى، ويتم بناء الإنسان الجديد وتتم معارك تخليص الإرادة المصرية من رواسب الماضى ومخاطر الحاضر. وإذا تصورنا أن معاركنا فى الداخل والخارج قد انتهت فإننا بذلك نستسلم للوهم.

ثم أننا يجب أن نفرق فى الثورة بين ثلاثة أمور. الأهداف، والوسائل، والإجراءات.

فالأهداف فى مرحلة الثورة هى دائمًا أهداف طموحة، هى عادة أكبر من قدرة المجتمع على تحقيقها لكن المجتمع لا يعترف بمسألة الإمكانيات

المحدودة، ويعوضها بإرادة التغيير غير المحدودة وتثبت الشعوب فى ثوراتها أن الإرادة أهم من الإمكانيات وأن الأهداف التى تبدو بعيدة بل ومستحيلة فى الظروف العادية تصبح ممكنة بل وأحيانا سهلة فى حالة الحشد الثورى. وهذا الحشد ليس فقط تجميعا للإمكانيات ولكنه مزيج من الحشد المادى والسيكولوجى والروحى وهو لهذا يولد فى المجتمع طاقات جديدة من الصعب تصور وجودها فيه فى الأحوال العادية فهل من مصلحتنا أن نتنازل عن وضع أهداف ثورية لنرضى بأهداف متواضعة محدودة.. أم أن واجبنا أن نبقى هذه الروح الثورية التى تجعلنا فى حالة استنفار لكى نحقق المستحيل.. أو ما يبدو مستحيلاً.

وكذلك الأمر بالنسبة للوسائل. فالثورة لا تعترف بوسائل التغيير التقليدية. ولا تخضع للروتين، ولا تعطى القيادة فى أى موقع لمن تستعبده النصوص الجامدة فى اللوائح. ولكن تكون الغلبة لوسيلة التغيير الثورية، وهى الوصول إلى الهدف من أقصر طريق، وبسرعة تفضل الركض على السير العادى. طبعا لابد من دراسة الهدف جيدا قبل التحرك ونحوه. ولكن حين تبدأ الحركة فإنها تكون قفزا وبكل قوة.. وربما كان مثال بناء السد العالى كافيا لتوضيح الفكرة.

وهذه الوسائل الثورية مازلنا نحتاجها لسنوات طويلة قادمة دون شك.

أما الإجراءات الثورية فهذه هى التى تحتاج إلى وقفة. ففى لحظة غليان الثورة يكون منطقيا ومبررًا ألا تخضع الثورة للقانون لأنه يمثل مصالح المجتمع القديم والطبقات القديمة. ولذلك فمن المشروع فى هذه اللحظة أن يتوقف القانون لتتقدم الثورة وتهدم أصول المجتمع القديم وتقيم دعائم المجتمع الجديد وتضع قوانينها التى تعبر عن القوى وبالعلاقات الجديدة ليسود القانون مرة أخرى ويعلو فوق إرادات الجميع. ويخضع له الكل،

ولا يسمح لأحد بأن يتصور أنه فوق القانون وهذه هى المرحلة التى نعيشها الآن، والتى نؤكد فيها على الأمرين. سيادة الدستور والقانون واستقلال القضاء من ناحية، وتعميق الديمقراطية والمشاركة الشعبية من ناحية أخرى.

وهنا نصل إلى أن الأهداف الثورية باقية ومستمرة ويجب أن تبقى وأن تستمر، والعقلية الثورية باقية ومستمرة، والوسائل الثورية باقية ومستمرة، ولكن الإجراءات الثورية انتهت ولن تعود مرة أخرى.. وبهذا المعنى نقول أن ثورة ٢٣ يوليو باقية حتى بغير قادتها الذين خرجوا ليلة قيامها.. لأنها فى حقيقتها ثورة شعب.. والشعب باق وقادر على أن يهزم أى ثورة مضادة كما أنه قادر على أن يدفع إلى مواقع القيادة دائمًا من بين أبنائه من يواصل بهم المسيرة. ولأنها منهج فى التفكير والعمل لا يرضى بالأهداف الجزئية ولا بالإصلاحات الصغيرة وتسعى إلى تغيير المجتمع تغييرًا شاملاً، فى كل النواحى، ومن الجذور.. وقد لا ترضى هذه الحقيقة البعض، لكنها حكم الواقع، وحكم التاريخ، ونداء المستقبل.

(١٤)

ثورة ٢٣ يوليو فى غربال التاريخ

ما حدث ويحدث – لثورة ٢٣ يوليو ليس غريبًا، ثورة قامت لتحرر شعبا من التبعية والاستغلال، وخاضت معارك ضارية، وكان طريقها مليئًا بالانتصارات والهزائم.. وبالإنجازات والأخطاء.. وبقدر ما كانت عميقة وطموحة واجهت أعداء كثيرين، كانوا يزدادون مع كل مرحلة من مراحلها، شأن كل الثورات الكبرى فى التاريخ.

وما تعرضت – وتتعرض له – ثورة ٢٣ يوليو ليس شيئا جديدا.. فكل ثورة استهدفت تغيير مجتمعها تغييرًا جذريا، وامتد تأثيرها إلى خارج حدودها، تعرضت لمثل ما تعرضت له ثورة ٢٣ يوليو، ندرك ذلك إذا لم تغب عنا حقيقة أن التاريخ حركة دائمة، والتاريخ لا يعرف الجمود أو السكون أو التوقف، والمجتمعات كائنات حية، تتنفس، وتعيش، وتنمو، وتصاب بالمرض، وتستعيد الشباب بما فيه من طموح، أو تستسلم للشيخوخة والتصدع والتحلل، التاريخ صراع قوى، فى الداخل والخارج، والتاريخ ليس إلا سلسلة من الفعل ورد الفعل.. وأى ثورة فى التاريخ استهدفت تغيير الواقع السياسى والاجتماعى اصطدمت بمصالح القوى المسيطرة على المجتمع، وهى بالطبع قوى لها أسلحتها ونفوذها وقواعدها. فالثورة تغيير فى أسس المجتمع، وفى فلسفته، وقواعد البناء ذاته، هذا التغيير لابد أن يشمل اقتلاع أوضاع قديمة ولابد لذلك من أن يستخدم درجة أو أخرى من العنف، لأن الأوضاع القديمة راسخة، والمستفيدون بها يمثلون الطرف الأقوى، ولن يستسلموا للتطورات الجديدة إلا منهزمين.

وكما فعلت كل الثورات، فعلت ثورة ٢٣ يوليو، غيرت الأساس والاتجاه والفلسفة والمنهج، واستخدمت العنف، وفى أثناء ذلك ارتكبت أخطاء لا ينكرها أحد ولا يبررها أحد، ولكن السؤال: هل كان استخدام العنف ضروريا فى مسار هذه الثورة أم أنه استخدام بغير ضرورة، وهل جاء استخدامها للعنف بمبادأة منها، أم جاء كرد فعل لاستخدام أعدائها للعنف ومقاومتهم للتغيير إلى حد تهديد الثورة ذاتها؟

بعد هذه السنوات تتعرض الثورة لهجوم من كل ناحية، وبكل سلاح.. منها أسلحة غير أخلاقية وغير موضوعية وغير نزيهة القصد.. لا يهم.. لأن ما يحدث من رد فعل بالهجوم المضاد أو الثورة المضادة لأى ثورة هو شىء طبيعى متفق مع منطق التاريخ: عرابى تعرض للهجوم الشرس، وظلت صورته لسنوات على أنه فلاح جاهل قاد جيشا من الدراويش وبعد أن انتهت مرحلة التشويه وتبددت أكاذيبها وسمومها عادت الحقيقة لتنتصر، وأصبح عرابى زعيمًا عظيمًا ومناضلاً، وقائدًا شعبيًا، كانت المؤامرة عليه أقوى منه ومن جيشه ومن شعبه. نفس الشىء حدث لسعد زغلول، وهناك من كتب ليشكك فى أن سعد هو قائد ثورة ١٩١٩، بل وهناك من أراد أن يشكك فى أن ثورة ١٩١٩ ما كانت ثورة أصلاً.. ومع ذلك عادت الحقيقة لتنتصر واستقر فى ذهن الجميع أنها كانت ثورة شعبية شاملة ذات أهداف سياسية واجتماعية ومعلمًا من أبرز معالم التاريخ المصرى فى العصر الحديث.

الآن جاء الدور على ثورة ٢٣ يوليو.. جريمتها أنها وقفت فى وجه الاحتلال بكل أشكاله، والاستغلال بكل صوره، وأرادت أن تجعل للفقراء صوتًا ونصيبًا فى الثروة القومية. ورفعت شعارات الاستقلال، والقومية العربية، وبدأت فى إعادة ترتيب الأوضاع الاجتماعية.

هذه الثورة الكبرى كان لابد أن يأتى وقت يظهر فيه رد فعل طبيعى كبير وحاد ومليء بالمرارة. لذلك رأينا من يدعى أنها لم تكن ثورة بل كانت

انقلابا أو مجرد «حركة الجيش»، ومن يتقول بأنها كانت من صنع أجهزة مخابرات أجنبية، وكلام كثير من هذا النوع يعبر عن محاولات مستميتة لتضليل العقول، وتشويه الحقائق، وتصفية الحسابات.. لا بأس.. هى محاولات تشتد مهما تشتد وسوف تنتهى حتمًا بأن تنتصر الحقيقة، وينصف التاريخ ثورة ٢٣ يوليو كما أنصف غيرها من الثورات الكبرى.

لقد رفعت ثورة ٢٣ يوليو مبادئها الستة: القضاء على الاستعمار وأعوانه، القضاء على الاستغلال وسيطرة رأس المال على الحكم، القضاء على الإقطاع، إقامة عدالة اجتماعية، إقامة جيش وطنى قوى، إقامة حياة ديمقراطية سليمة.. هل يمكن أن يختلف أحد على أن هذه المبادئ هى جوهر المطلب الشعبى المصرى منذ عام ١٩٥٢ وحتى الآن.. سارت الثورة فى طريق تحقيقها.. حققت أشياء ولم تستطع أن تحقق أشياء.. فإذا كانت المبادئ سليمة فليكن جهدنا الآن أن نراجع، وبعد المراجعة نعمل على تصحيح الأخطاء، والسلبيات، ونسعى لاستكمال ما لم يتم.. والدعوة للعمل مفتوحة دائما، لكل من يريد أن يعمل لبلده..

قد يقاوم البعض ويحاول أن يهدم الثورة وأعمالها كما يحاول أن يهدم المبادئ والمنهج.. لا بأس، فليحاولوا.. فهذا أيضا تكرر كثيرًا فى التاريخ.. وكلها أشبه بقنابل الدخان.. تحجب الرؤية الصحيحة لفترة ثم تنقشع لتعود الأمور ناصعة أكثر.. وتبقى ثورة ٢٣ يوليو قوة دافعة، وتعبيرا عن إرادة شعب فى مواجهة التحديات التى تحيط به، ويسعى إلى بناء بلده دون أن يصيبه اليأس، كلما هدم له أعداؤه جدارا أقامه، وكلما أحرقوا له زرعا أعاد غرسه، وكلما شوهوا له إنجازاته بدد سحب التضليل وأعاد لها حجمها الحقيقى، وكلما صدروا له المشاكل تغلب عليها فى النهاية..

هذه هى روح ٢٣ يوليو.

كل شيء يمكن أن تنال منه المؤامرة، ولكن هذه الروح تبقى سالمة، قوية، بل إن المؤامرات تزيدها قوة، وهذا هو جوهر الشعب المصرى.. ومن يكابر عليه أن يعود إلى صفحات تاريخ عمره آلاف السنين.. أما ماذا سيبقى من ثورة ٢٣ يوليو فى غربال التاريخ، فالأمر المؤكد أن كثيرًا من الصغار والصغائر التى رأيناها ونراها سوف تسقط من ثقوبه، وسوف يبقى منها الرجال الكبار، والأعمال الكبيرة، والمبادئ القومية والوطنية، ثم يبقى المنهج والطريق.

(١٥)
أسئلة عن المستقبل

هذا السؤال البسيط هو الذى يجب أن يشغلها الآن، بعد واحد وأربعين عاما على الثورة ظلت فيها حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها، تغلغل تأثيرها فى نسيج الحياة وفى خلايا العقول المصرية والعربية. ودون أن ننكر حق أعداء الثورة فى مواصلة سعيهم إلى الانتقام منها ومن قادتها ومبادئها بكل الطرق، وحق أنصارها فى الدفاع عن كل إنجازاتها وإجراءاتها، فإن من حق «السلفيين» على الجانبين أن يتعرضوا أمامنا حسنات الفردوس المفقود الذى يتصورون إمكان استعادته، سواء كان هذا الفردوس هو نعيم الحياة.. أيام القصر والاحتلال.. أو كان أيام التأميم ومحاكم الثورة، فإن ذلك كله أصبح من آثار الماضى، ولم يبق مشروعًا إلا التفكير فى المستقبل.

وليس غريبًا فى شىء ذلك الهجوم الضارى على الثورة ورجالها، فهذا ما يحدث الآن لكل ثورات التحرر الوطنى التى قامت فى الخمسينات ولكل حركات الاستقلال التى حاولت أن تشق طريقًا صعبًا بعدم الانحياز، إلى أن انهار النظام العالمى كله، وظهر نظام جديد اقتضى المراجعة والتراجع.. فأصبحت مبادئ ماوتسى تونج فى الصين، وتيتو فى يوجوسلافيا، ولومومبا ونكروما وأمثالهما فى أفريقيا، ونهرو فى الهند.. الخ موضع نقد وهجوم جعل أصحابها ينتقلون من خانة الأبطال الوطنيين والقادة التاريخيين إلى خانة المجرمين الذين جنوا على شعوبهم (!) وليس من المتوقع أن يجدوا الإنصاف من التاريخ إلا بعد سنوات حين يتم انحسار

هذه الموجة المضادة واستعادة الشعوب مقدرتها على وزن الأمور بميزان صحيح.

ومع ذلك فنحن نعيش الآن في عالم، وفي مجتمع مختلفين تمام الاختلاف عن عالم ومجتمع الخمسينات، ولذلك فإن معظم ما كان صالحا لتلك الفترة لم يعد صالحا الآن، وأى دعوة لإدارة حياتنا الحاضرة بأفكار وممارسات الماضى هى دعوة معارضة لمنطق التاريخ وحركة الحياة، فقد كان لثورة ٢٣ يوليو ضرورات وظروف دفعتها إلى اختيارات لم تعد صالحة، وبالتالى فإن ما حدث غير قابل للتكرار بحذافيره.

وبعيدًا عن رغبات الانتقام وتصفية الحسابات مع الثورة، عقد مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ندوة علمية دعا إليها الدكتور على الدين هلال أستاذ السياسة المرموق ومدير المركز، والتقى فيها مجموعة من المفكرين وأساتذة العلوم السياسية ليناقشوا بهدوء - وبدون التشنجات والتقلصات التى اعتدنا عليها - ماذا بقى لحاضر مصر ومستقبلها من ثورة يوليو؟ وتقول ورقة العمل المبدئية للندوة، إن أقصى ظلم للثورة أن يجاب عن هذا التساؤل بأنه لم يبق سوى بقايا الخراب والدمار الذى أحدثته، أو أن يقال إن التجربة بحذافيرها مازالت قابلة لتكرار ذات التطبيق الذى عرفته سنواتها الأولى. لأن هذه الثورة مثلت استجابة سليمة للظروف التى أحاطت بها، ولما كانت هذه الظروف قد تغيرت الآن تغيرًا جذريًا فإن التساؤل يبدو مشروعًا علميًا وسياسيًا. وقد دارت هذه الندوة الكبرى بمناقشاتها حول أربعة محاور رئيسية: قضية الديمقراطية، وقضية العدالة الاجتماعية، وقضية الاستقلال الوطنى، وقضية الدور الإقليمى لمصر.. وتقر ورقة العمل أن الثورة حققت فى هذه المجالات قدرا من النجاح أو الإخفاق بدرجة أو بأخرى، وما يعنينا هو أن نحاول قراءة مدلولاتها فى سياق حاضر مصر ومستقبلها.

هكذا يفكر العلماء بحياد وموضوعية لا يجعلون من أنفسهم ممثلى الاتهام ولا محامى الدفاع ولا مهرجى السيرك لتسلية أصحابه الجدد، ولكنهم يحتلون - بجدارة - منصة القضاء، ليس بهدف إصدار أحكام بالبراءة أو الإدانة، ولكن بقصد استخلاص ما يفيد الوطن فى حاضره ومستقبله، وهذا هو الاحتفال الذى يليق بحدث تاريخى كبير مثل ثورة غيرت وجه الحياة على الأرض التى تفجرت فيها.

فقضية الاستقلال الوطنى هى التى جعلت الثورة تخوض معارك فرضت عليها دون اختيار، ودفعتها إلى تأييد حركات التحرر العربى والإفريقى.. وكان خوض هذه المعارك ممكنًا فى ظل النظام الدولى الذى كان قائمًا فى ظل الصراع بين قطبين، فكيف سيكون تطبيق هذا المبدأ فى عالم أحادى القطب؟ وإذا كان كسر احتكار السلاح ممكنًا فى ظل الصراع بين القطبين فكيف سيكون فى ظل القيود الحالية على انتقال الأسلحة والتكنولوجيا العسكرية وفقا لمصالح الدولة أو الدول المهيمنة على النظام الدولى الجديد؟

وإذا كانت نقطة الضعف التى يسهل لخصوم الثورة توجيه السهام إليها هى أنها رفعت شعار إقامة حياة ديمقراطية سليمة ولم تحققه، وقتلت الإبداع والتعددية وإمكان تداول السلطة بالتنظيم السياسى الواحد، وبالزعيم الواحد، وبالفكر الواحد الذى يعتبر الخروج عليه جريمة يستحق صاحبها سلب الحرية، والسؤال الذى طرحته ورقة العمل فى الندوة بحثًا عن أنسب الصيغ للمستقبل هو: إذا كنا نتحرك فى الحاضر مع العالم بخطى وئيدة بمرحلة تركز على التعددية السياسية - فى الفكر والتنظيم السياسى - فهل يعنى ذلك أن ميراث يوليو فى هذا الصدد قد سقط نهائيًا، أم أن فكرة الاتفاق الوطنى حول دائرة عريضة من الأهداف مازالت واردة كتطوير لفكرة تحالف قوى الشعب العاملة السابقة، بحيث لا تنعكس فى تنظيم

سياسى واحد، ولكن من الممكن أن تظهر فى صيغة «التحالف» أو «الجبهة» بين الأحزاب المتعددة التى تتفق فى المبادئ..؟

وكذلك فكرة العدالة الاجتماعية، هل سقطت وولى زمانها، بسقوط الاشتراكية فى العالم وازدهار الرأسمالية، أم يمكن القول أن الدول الرأسمالية الغربية تضمن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية لأفرادها.. وهل من الصالح العام أن يسير مبدأ الحرية الاقتصادية دون ضوابط لضمان عدم الخلل الجسيم فى توزيع الثروات لصالح الاستقرار السياسى والتنمية الاقتصادية، أم نطلق مبدأ الحرية الاقتصادية دون أية ضوابط أم نضع قواعد جديدة لتطبيق العدالة الاجتماعية فى ظل الحرية الفردية واقتصاد السوق..؟

وأخيرا هل يمكن إنكار أن الدور الإقليمى لمصر فى ظل الثورة هو الذى جعل لها الدور القيادى والمكانة الدولية التى تتجاوز قدراتها الفعلية.. هل يمكن أن تخلع مصر عروبتها وانتماءها الأفريقى.. هل سيحقق لها ذلك - إذا تم - مصالح أكبر مما لو أبقت على دورها ومسئوليتها فى الدوائر الثلاث التى حددتها الثورة لانتماء وهوية الكيان المصرى وهى: الدائرة العربية والدائرة الأفريقية، والدائرة الإسلامية..؟ كيف نختار طريقنا فى ظل ظروف عالمية وعربية جديدة؟

هذه الأسئلة لابد أن نطرحها ونناقشها ونبحث لها عن إجابات تتجاوز الهراء الذى يعيد ويزيد فى تمجيد أو هدم الثورة بمقولات لم يعد فيها جديد، وليس لدينا مؤرخون حقيقيون يمكن أن نطمئن إلى أحكامهم وموضوعيتهم، وإن وجدوا فليست أمامهم وثائق وحقائق تاريخية يمكن أن يطمئنوا إليها للوصول إلى أحكام نزيهة وعادلة.. والأهم من ذلك كله أن الأحداث تجرى، والتغيرات من حولنا تجعلنا فى كل يوم فى عالم جديد، بينما «عواجيز القرح» غارقون فى الماضى، ولا يريدون منا أن نغادر الماضى

أبدا لنظل واقفين بالبكاء والنواح على أطلاله، بينما الحاضر يكاد يفلت من أيدينا، والمستقبل يتشكل الآن أمام عيوننا، ولابد أن نلحق به، ونقفز ولو في آخر عربة في قطار يجرى نحو آفاق واسعة.. هل نفعل ذلك ونفكر في الغد، أم ندع قطار المستقبل يفوتنا لكي نعيش على أمل استعادة عصر البشوات. والباب العالى.. وقصر الدوبارة..؟!».